المقطَّعات في الشّعر الجاهليّ

يقِفُ الدَّارسونَ عَلى جوانبَ عدّة عندَ دِراسة الظَّواهِرِ الشّكليّة المتعلّقة بالشّعر الجاهليّ، ومنها: **المناهج الّتي سَلَكَها الشُّعَراء في بناء أشعارهم**؛ ومَنْ يتأمَّلْ ما وصلَ إلينا مِنَ الشّعر الجاهليّ يجدْ ثلاثةَ أشكالٍ مُتَمايزةٍ:

- فمنها ما جاءَ قصائدَ طويلةً في عشرات الأبيات، متعدّدةِ الأغراض، وهو المنهج الَّذي يُسَمّيه النقّادُ بـ(**المنهج التّقليديّ**).

- ومنها ما جاءَ قصائدَ طويلةً في عشراتِ الأبياتِ أيضًا، ولكنّها ذاتُ غَرَضٍ واحد، ويُسَمّى بِـ(**منهجِ القصيدة غيرِ التّقليديّ**).

- ومنها ما جاءَ قصيرًا، في أبياتٍ قليلة، ويُسَمَّى بمنهج (**المُقَطَّعات**)، وهو جَمْعُ مُقَطَّعة؛ وربّما قيل (المَقْطُوعات) أو (المَقاطِيع) أو (القِطَع).

وقد ذهب النقّاد مذاهب عدّةً في الحديث عن: نشأة الشِّعر وعلاقته بالمقطَّعات، وأوّلِ مَن طَوّلَ الشِّعْرَ وقصَّدَ القَصِيدَ وعلاقة ذلكَ بالمُقَطَّعات، والفرقِ بين المقطّعة والقصيدة، وأسبابِ مَيْلِ بعضِ الشّعراء إلى المقطَّعةِ دونَ القصيدة؛ وسيتناول الحديثُ فيما يأتي بعضَ هذه

الجوانبِ، مَعَ مناقشةِ بعضِ الآراء، لاستجلاءِ حقيقة هذا المنهج من مناهج بناءِ الشّعر العربيّ في الجاهليّة، ثمّ يقف عند الأغراض الّتي تناولَها الشّعراء في مقطّعاتهم، وينتهي بتناوُلِ بعضِ الظّواهِرِ الفنّيّة العامّة فيها.

أوّلًا - نشأة الشّعر وعلاقتها بالمقطّعات:

ذهب دارسو تاريخ الشّعر إلى أنَّ نشأتَهُ كانت لأسبابٍ أوصلت الإنسانَ إلى هذا الفنّ، واختلفت مذاهبُهم في تحديد هذه الأسباب.

١- فمنهم مَنْ قالَ: إنَّ **الإنسان الأوَّلَ** كانَ يسكُنُ الكهوفَ ولا يعرفُ زراعةً ولا رَعْيًا، فكانت حياتُه قائمةً على الصَّيْد وجَنْيِ الثّمار، فإذا ما عادَ الأبُ مِنْ رحلتِهِ خاليَ الوِفاضِ عَمَّهُمُ الغَمُّ والحُزْن، فعبّروا عن فرحِهم أو حزنِهم بطرائقَ مختلفةٍ مِنَ الأصواتِ والحركاتِ، وتطوّرت إلى أن صارت رقصًا وغناءً بعباراتٍ متوازنةٍ، ثمّ صارَتْ العباراتُ موزونَةً على شكلِ مقطّعاتٍ، ثمَّ تطوّرت المقطّعات إلى أن صارت قصائدَ طويلة.

٢- ومنهم مَنْ قالَ: إنَّ **الإنسانَ الأوّلَ** كانَ يَسْمَعُ حفيفَ الشَّجَرِ وخريرَ الماءِ وصفيرَ الرِّيح وتغريد الطَّيْرِ ودَويّ الرَّعد، وهي أصواتٌ ذاتُ إيقاعاتٍ، فجعل يقلّدها ويُحاكيها بكلامِهِ، وتطوَّر ذلكَ التّقليدُ إلى كلامٍ متناسقٍ متوازنٍ، فصاغَ بيتًا مِنَ الشِّعر، ثمّ صاغَ آخَرَ، وهكذا حتّى استطاعَ صياغةَ مقطوعةٍ شعريَّة، فقصيدة.

٣- ومنهم مَنْ رأى أنَّ **الإنسانَ العربيَّ** كانَ إذا ما انطلَقَ وَحيدًا في الصَّحراءِ، وتَداعَتْ أفكارُه وجاشَت إليه نفسُهُ وخواطِرُه فَرَقًا مِنْ وَحْدَتِهِ ومِن الوحوشِ، جعلَ يحدّث نفسَه بصوتٍ مسموعٍ، تَسْلِيَةً لها وتَطْمينًا، وجعلَ يُرَدِّدُ ذلكَ الصَّوتَ ويكرِّرُه ويترنّم به وينسُجُ على مِنوالِهِ، حتّى تشكّلت لديه أبياتٌ قليلة مِنَ الشّعرِ، ويَرَوْنَ أثَرَ ذلكَ في قولِ هِنْدِ بْنَةِ بيّاضةَ بنِ رِياحِ بنِ طارقٍ الإياديّة:

وَعَــى وعَــى وعَــى وعَــى حَــرَّ الْــجَرَادُ والْتَظَــى
وامــتلأَتْ منــهُ الرُّبَــى يــا حَبَّــذا يــا حَبَّــذَا
المُـلْـحِـفُونَ بالضُّـحَى

٤- ومنهم مَنْ رأى أنَّ **الإنسانَ العربيَّ** بَدَأَ باستحسانِ بعضِ العباراتِ المخالفةِ للكلام المألوف، ممّا كان يَجري على ألسنةِ بعضِ العربِ في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم وفي سَجْعِ الكُهَّانِ، وفي ذلك كلِّه عباراتٌ مُتوازِنةٌ مسجوعةٌ؛ كقول عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ في مُنافَرَةِ عَلْقَمَةَ بنِ عُلاثَةَ: «**واللهِ! لأَنَا أَرْكَبُ مِنكَ في الحُماة، وأَقْتَلُ منكَ للكُماة، وخَيْرٌ منكَ للمَوْلَى والمَوْلاة**»، فقالَ عَلْقَمَةُ: «**واللهِ إنّي أَعَزُّ مِنْك؛ إنّي لَبَرٌّ وإنَّكَ لَفاجِر، وإنّي لَوَفِيٌّ وإنّكَ لَغادِر، فَفِيمَ تُفاخِرُني يا عامِر؟**»، فقال عامر: «**واللهِ إنّي لَأَنْزِلُ مِنْكَ لِلْقَفْرَة، وأَنْحَرُ مِنْكَ لِلْبَكْرَة، وأَطْعَمُ مِنْكَ لِلْهَبْرَة، وأَطْعَنُ مِنْكَ لِلثُّغْرَة**»،

وقولِ كاهِنِ بني الحارثِ ينصحُهم أَلَّا يَغْزُوا بَني تَمِيمٍ: « **إِنَّكُمْ تَسيرونَ أَعْقَابا، وتَغْزُونَ أحبابا، سَعْدًا ورَبابا، وتَرِدُونَ مِياهًا جِبابا، فَتَلْقَوْنَ عليها ضِرابا، وتكونُ غَنِيمَتُكم تُرابا، فأطيعوا أَمري ولا تَغْزُوا تميمًا**»؛ فحفظوا ذلكَ وأمثالَهُ، ثمّ تقدَّمَت بهم الحالُ إلى أَنْ قالوا المقطّعاتِ فالقصائد.

٥- ومنهم مَن رأى أنَّ **الشِّعرَ العربيَّ** ناشئٌ عَنْ فَنّ ترقيصِ الأطفال، إذ كان الرَّجُل أو المرأةُ منهم يحملُ الوَلَدَ ويُرَقِّصُه بأبياتٍ قليلة لِيُفْرِحَهُ ويُدَاعِبَه، كقولِ بعضِهم[1]:

حُزُقَّةٌ حُزُقَّهْ

تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّهْ

وقول فاطمةَ بْنَةِ أَسَدِ بنِ هاشِمٍ أُمِّ عَقيلِ بنِ أبي طالب:

إنَّ عَقِيلًا كَاسْمِهِ عَقِيلُ

وَا بِأَبي المُلَفَّفُ المحمولُ

ثمّ زادَتِ الأبياتُ، وصاغوا ذلكَ في غيرِ التّرقيص، فنشأتِ المقطّعاتُ فالقصائد.

---

(١) الحُزُقّة: من يُقارِبُ خَطْوَه لضَعْفِ بَدَنِه. وتَرَقَّ: اِصْعَدْ. وعَيْن بَقَّة: كنايةٌ عن صِغَرِ العَيْنِ، وقيل: شُبِّهَ بعين البقَّةِ لِصِغَرِ جُثَّتِه؛ وقيل (عين بقَّة) اسمُ قصرٍ أو حِصْن؛ أي: اِصْعَدْ إلى أعْلاه؛ انظر: لسان العرب وتاج العروس (حزق).

٦- ومنهم مَنْ رَدَّ نشأةَ **الشِّعرِ العربيّ** إلى الحُداءِ، وهُوَ الغِناءُ للإبلِ كي تَجِدَّ في سَيْرِها، وإلى الغناءِ في الأعمالِ الجماعيّة كحفرِ بئرٍ أو بناءِ بَيْت، وكانتِ البدايةُ بكلماتٍ ردَّدوها فكانت بدايةُ الحُداء، ثمّ المقطّعات الّتي تطوَّرَ عنها الشّعر؛ ويذكرون أنَّ أوّلَ ما كانَ ذلك على عَهْدِ مُضَرَ بنِ نزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عدنان، إذ ضَرَبَ غلامًا لَهُ على يَدِهِ فَجَعَلَ يَصيح: (وَايَدَاه! وايَدَاه!)، فسمعَتِ الإبلُ صوتَهُ فاستعْذَبَتْهُ وجدَّت في سيرِها، فلَفَتَ ذلكَ انتباهَ مُضَرَ، فدَعا إلى أَنْ يُصاغَ مِثْلُ ذلكَ لِيُعِينَ الإبلَ على الإسراع؛ ويكادُ أصحابُ هذا الرأي يُجْمِعُونَ على أنَّ بحر (الرَّجَز) هو الَّذي تطوَّرت عنهُ بقيّةُ بحور الشِّعر.

والنّظرُ في هذه الآراء يدلُّ على أنّها ضُروبٌ مِنَ التَّخمينِ ورَجْمِ الظُّنونِ في أمرٍ قديمٍ جدًّا هُوَ في علمِ الغَيْب، ثُمَّ إنّ معظم هذه الآراء يحتوي مغالطاتٍ وأوهامًا لا تصحّ.

- فالحديث عن ترديدِ العربيِّ بعضَ الكلمات حين ينطلق في الصّحراءِ حتّى صارت شعرًا، واستشهادُهم بكلام هند بنت بيّاضة بن رياح بن طارق يَنْقُضُه أنَّ ابنةَ بيّاضةَ قالت ما قالته شعرًا موزونًا تحضُّ به قومَها على القتال، لا خوفًا من الصّحراء، وما تَكرارُها كلمةَ (وعى) سوى

ضَرْبٍ مِنَ التّحريضِ المألوفِ في أشعار الحروب، وأنَّ لها أُختًا قالت شعرًا آخَرَ في تلك المعركة، هو[1]:

نحنُ بَنَاتُ طارِقْ نَمْشِي على النَّمارِقْ
مَشْيَ القَطَا النَّواتِقْ الدُّرُّ في المَخانِقْ
والمِسْكُ في المَفارِقْ إنْ تُقْبِلُوا نُعانِقْ
ونَفْرِشِ النَّمارقْ أَو تُدْبِرُوا نُفارِقْ
فِراقَ غيرِ وامِقْ

وأنَّ لِهِنْد نَفْسِها شعرًا على البحر الطّويل تقول فيه:

دُعِينَا لأَضيافٍ وقَدْ نَزَلوا بِنا رُفَيْدَةُ والقَيْنُ بنُ جَسْرٍ وعامِرُ
وقَدْ نَزَلَتْ بَهْراءُ خَلْفَ بُيُوتِنا كما نَزَلَتْ تَبْغَي قِرانا الأَساوِرُ

- والحديثُ عن تطوّر الشّعر عن سَجْعِ الكُهّانِ والمُنافَراتِ، يَنْقُضُهُ أنّ الكُهّانَ الَّذينَ يُستَشْهَدُ ببعض عباراتِهم كانت لهم أشعارٌ على أوزانٍ عدّة، ومعنى ذلكَ أنَّ الكهّان كانوا يُجيدونَ السَّجْعَ في عباراتهم كما

(١) النّمارق: جمع النُّمْرُقة، وهي الوِسادة. والنّواتق: جمع النّاتق، وهي الّتي سَمِنَت، أو الّتي تهتزّ في مَشْيِها؛ قال النُّوَيْريّ في (نهاية الأرب):«وتُوصَفُ القطا بِحُسْنِ المَشْيِ لِتَقارُبِ خُطاها، والعرَبُ تُشبِّه مَشْيَ النّساءِ الخَفِرات بِمَشْيِها إذا أرادوا مَدْحَهُنّ». والوامِق: المُحِبّ.

يُجيدونَ فنَّ الشِّعر، وهما فنّانِ مختلِفان، وربّما جمعوا بينهما في كلامٍ واحدٍ، كقَوْلِ الكاهِنِ قُسِّ بْنِ ساعِدةَ الإياديّ في بعض الرّوايات:« **أيُّها النّاس! اسمَعُوا وعُوا، مَنْ عاشَ مات، ومَنْ ماتَ فات، وكلُّ ما هُوَ آتٍ آت؛ لَيْلٌ داج، وسَماءٌ ذاتُ أَبْراج، بِحارٌ تَزْخَر، ونُجومٌ تَزْهَر، وضَوْءٌ وظَلام، وبِرٌّ وآثام، ومَطْعَمٌ ومَشْرَب، ومَلْبَسٌ ومَرْكَب؛ ما لِي أَرى النّاسَ يَذْهَبُونَ ولا يَرْجِعُون، أَرَضُوا بالمُقامِ فأَقامُوا، أَمْ تُرِكُوا فنَامُوا؟ وإِلَـٰهِ قُسِّ بنِ ساعِدَةَ! ما عَلى وَجْهِ الأَرْضِ دِينٌ أَفْضَلُ مِنْ دِينٍ قَدْ أَظَلَّكُمْ زَمانُه، وأَدْرَكَكُمْ أَوانُه، فَطُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَهُ فاتَّبَعَه، ووَيْلٌ لِمَنْ خالَفَه**»، ثمّ أَنْشأَ يقولُ:

في الـــــذّاهبينَ الأَوَّلِيـــــــنَ مِـــنَ القُـــرونِ لَنـــا بَصـــائِرْ
لَـــــمَّا رَأَيْـــــتُ مَـــــوارِدًا لِلْمَـــوْتِ لَـــيْسَ لَهَـــا مَصـــادِرْ
ورَأَيْـــتُ قَـــوْمِي نَحْوَهـــا يَـــمْضي الأَصـــاغِرُ والأَكـــابِرْ
أَيْقَنْـــــتُ أَنِّي لا مَحـــــالَـــةَ حَيْـــثُ صـــارَ القَـــوْمُ صـــائِرْ

وكذلكَ حالُ أصحابِ المنافرات، فعامرُ بنُ الطُّفَيلِ له أشعارٌ كثيرةٌ مجموعة في ديوانه.

وبقيّةُ الآراءِ تُنْقَضُ وتُرَدُّ مِثْلَ هذينِ الرَّأيَيْنِ، وهذا لا يَعْنِي إنكارَها، ولكن ما مِنْ رأيٍ منها يُسَلَّمُ بأنّه الرّأيُ السَّديدُ الوحيد.

ثانيًا - أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ الشِّعْرَ وقَصَّدَ القصيد، وعلاقةُ ذلكَ بالمقطّعات:

يُطالِعُ النّاظرَ في كتب العلماء القدماءِ كلامٌ عَلَى أَوّلِ مَنْ طَوَّلَ الشِّعْرَ وقَصَّدَ القَصِيد، إذ يجدُ مَنْ ينسِبُ ذلكَ إلى **مُهَلْهِلِ بنِ ربيعةَ التَّغلبيّ**، في عَهْدِ عبد المطَّلِب وأَبيهِ هاشِمِ بنِ عبدِ مَنَاف، ومنهم مَنْ يَنْسِبُهُ إلى **الأَفْوَهِ الأَوْديِّ** مِنْ شعراءِ مَذْحِجَ اليمنيّين، أو إلى غيرِهِما مِنَ الشُّعراء؛ ويقولون: إنّ الشّعراءَ العربَ الأوائلَ لم يكن لهم قبلَ ذلكَ مِنَ الشِّعْرِ سِوَى الأبياتِ القليلةِ يقولُها الرَّجُلُ في حاجَتِه، ومعنى ذلكَ أَنَّ الشِّعْرَ كانَ مُقطَّعاتٍ لا تبلُغُ أن تكونَ قصائد.

واستجلاء هذا الأمر يستَدْعي الرُّجوعَ إلى الأشعارِ الّتي قالها الشّعراء الَّذين كانوا قبلَ مهلهلٍ والأفْوَهِ أو غيرِهِما مِمَّن نُسِبَ إليْهِم تطويل الشّعر، أَو عاصَرُوهم؛ ففي المصادِرِ أشعارٌ قديمةٌ صحيحةُ النِّسبةِ، وهيَ أَشعارٌ مرتبطةٌ بحوادثَ مُهِمَّةٍ أو بأفرادٍ كانوا أعلامًا في قبائِلهم، أَو هِيَ أَشعارٌ متعلّقَةٌ بأَمثالٍ سَارَتْ على أَلسنةِ العربِ وحَفِظُوا مُنَاسَبَاتِها وأَسماءَ قائليها، والأمثالُ وقِصَصُها مَظِنَّةُ أَنْ تُحْفَظَ وتدومَ مئاتِ السِّنين.

فمن ذلك الشِّعر القديم الصّحيح أبياتٌ قالهَا جَذِيمةُ الأَبْرَش، وهو أَحَدُ ملوكِ العربِ بالعراق كانَ في القرنِ الثّالثِ الميلاديّ، وقد أَوْقَعَ

بعضُ ملوكِ اليمنِ بكتيبةٍ مِنْ كتائبِهِ فأَبادَها، فرثاهم بقوله (مِن بحرِ المَدِيد):

رُبَّـــما أَوْفَيْـــتُ في جَبَـــلٍ تَـــرْفَعَنْ ثَـــوْبي شَـــمَالاتُ

فِي فُتُـــوٍّ أَنَـــا رَابِـــئُهُمْ هُـــمْ لِـــذِي العَـــوْرات صِـــمَّاتُ

لَيْـتَ شِـعْرِي مـا أَطـافَ بِهِـمْ نَحْـــنُ أَدْلَـــجْنَا وهُـــمْ بـــاتُوا

ثُـــمَّ أُبْنَـــا غـــانِمِينَ وكَـــمْ مِـــنْ أُنـــاسٍ قَبْلَنَـــا مـــاتُوا

وفي زمَنِ جَذيمةَ ضاعَ ابنُ أُخْتِهِ (**عَمْرُو بنُ عَدِيٍّ اللَّخْمِيُّ**) – وهُوَ الَّذي وَلِيَ المُلْكَ مِنْ بعدِ جَذِيمةَ وكان بنوه وأحفادُه ملوكَ الحيرةِ إلى أن جاءَ الإسلام – وكان صغيرًا حينَ ضاعَ، ثمَّ وَجَدَه رَجُلانِ مِن بني أَسَدٍ (مالِكٌ وعَقِيل) وقَدِما بِهِ إلى خالِهِ، فهيَّأَتْهُ أُمُّهُ وأَلبَسَتْهُ طَوْقًا، فلمَّا دَخَلَ على خالِهِ قالَ: (شَبَّ عَمْرٌو عَنِ الطَّوْق) فذهب قولُهُ مَثَلًا، وجَعَلَ الرَّجُلَيْنِ نَدِيمَيْنِ لَهُ، وهُمَا (نَدِيمَا جَذِيمةَ) اللَّذَانِ ضَرَبَتْ بهما العَرَبُ المَثَلَ في طولِ الاجتماع؛ وكانت مَعَهُما حينَ وَجَدا عَمْرًا جاريةٌ تُكْنَى أُمَّ عَمْرٍو، فكانت إذا أَرادَتْ أَن تَسْقِيَهما الخَمْرَ – وهُم في الطَّريقِ إلى جَذيمَةَ – تَصْرِفُ الكَأْسَ عَنْ عمرو، فقال (مِن بَحْرِ الوافر):

صَرَفْـتِ الكَـأْسَ عَنَّـا أُمَّ عَمْـرٍو وكـانَ الكـأسُ مجراهـا اليَمِينَـا

وَمَـــا شَرُّ الثَّلاثَـــةِ أُمَّ عمـــرٍو بِصـاحِبِكِ الَّـذي لا تَصـبَحِينَا

ثُمَّ أَدْخَلَ عَمْرُو بنُ كُلْثُومٍ التَّغلبيُّ هذين البيتَيْنِ في معلَّقَتِهِ الـمَشْهُورة.

وقبلَ دَهْرٍ مِنْ زَمَنِ جَذِيمةَ كانَ **حَزِيمةُ بنُ نَهْدٍ القُضَاعيّ** –ويُقال في اسمه (خُزَيْمة)، ونَهْدٌ أبو قَبيلةٍ مشهورة – وكانَ يَعْشَقُ فاطمةَ بْنَةَ يَذْكُرَ بنِ عَنَزَةَ بنِ أَسَدِ بنِ رَبيعةَ بنِ نزارِ بنِ مَعَدّ، وكانوا جميعًا مُقِيمينَ في تِهامَةَ، فقالَ حَزيمةُ فيها (مِن بحرِ الوافر)[1]:

إِذَا الْـــجَوْزَاءُ أَرْدَفَـــتِ الثُّرَيَّـــا ظَنَنْـــتُ بِـــآلِ فاطمـــةَ الظُّنُونَـــا

ظَنَنْتُ بهـا، وظَـنُّ الـمَرْءِ حُـوبٌ وَإِنْ أَوْفَى وإِنْ سَـكَنَ الـحَجُونَا

وَحَالَـتْ دونَ ذلـكَ مِـنْ هُمُـومِي هُمُـومٌ تُخْـرِجُ الشَّـجَنَ الـدَّفِينَا

أَرى ابنَـةَ يَـذْكُرٍ ظَعَنَـتْ فَحَلَّـتْ جَنُـوبَ الحَـزْنِ يَـا شَـحَطًا مُبِينَـا!

---

(١) الـحُوب: الـذَّنْب. والحَجُـون: جَبَـلٌ في مكّـة الـمكرمة كانـت فيـه مقـابِرُ أهلِهـا. والشَّجَنُ: الحُزْن. والـدَّفينُ: الـمدفونُ داخـلَ قلبِـه. وظَعَنَـتْ: سـافَرَت ورحَلَـتْ. والشَّحَطُ: البُعْدُ.

ثمَّ إنَّ حَزيمةَ ويذكُرَ خَرَجا يَطْلُبانِ القَرَظَ – وهو نباتٌ لِدَبْغِ الجلود – فكانَ حَزِيمةُ سَبَبَ مَوْتِ يَذْكُر، وغابَ أَثَرُهُ، فَلَمْ يَعْلَمُوا ما أَصابَهُ حتى قالَ حَزِيمةُ (مِن بحر المتقارِب)[1]:

فَتَاةٌ كأنَّ رُضابَ العَصيرِ بِفِيهَا يُعَلُّ بِهِ الزَّنْجَبيلُ
قَتَلْتُ أَبَاهَا عَلَى حُبِّهَا فَتَبْخَلُ إِنْ بَخِلَتْ أَوْ تُنِيلُ

فثارتِ الحربُ بينَ حَيَّيْهِما، فَقُهِرَتْ قُضاعةُ وأَجْلَتْ عَنْ تِهامَةَ، **وكان ذلكَ أوّلَ افتراقِ وَلَدِ مَعَدِّ بنِ عدنان**؛ وضُرِبَ المَثَلُ بِغيابِ يَذْكُرَ، فقالوا فيما لا يكونُ: (حَتّى يَؤُوبَ قَارِظُ عَنَزَةَ).

ومِنْ ذلكَ الشّعر القديمِ الصَّحيح أَبياتٌ **لِدُوَيْدِ بنِ زَيْدِ بنِ نَهْدٍ**، وكانَ عُمِّرَ طَويلًا، فقالَ حينَ حَضَرَتْهُ الوفاةُ (مِن بحر الرَجَز):

اليومَ يُبْنَى لِدُوَيدٍ بَيْتُهُ يا رُبَّ عَبْلٍ حَسَنٍ ثَنَيْتُهُ
ومِعْصَمٍ مُوَشَّمٍ لَوَيْتُهُ ومَغْنَمٍ في غَارةٍ حَوَيْتُهُ
لَوْ كانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ أَوْ كانَ قِرْنِي واحِدًا كَفَيْتُهُ

---

(١) أرادَ بِرُضابِ العصير: الخَمْرَ. وفُوها: فَمُها. ويُعَلُّ: يُسْقَى مرّةً بعدَ مرَّةً، يريد أنَّه يُمْزَجُ به.

ومِثْلُ هذا أنَّ **مُنَبِّهَ بنَ سَعْدِ بنِ قَيْسِ عَيْلانَ** – وهُوَ أَحَدُ آباءِ القبائل، ومِن بَنِيهِ بَنُو غَنِيٍّ وباهلَةُ– كانَ قَدْ عُمِّرَ زَمَنًا، فقالَ (مِن بحرِ الكامل):

قالَتْ عُمَيْرَةُ: ما لِرَأْسِكَ بَعْدَمَا نَفِدَ الشَّبَابُ أَتَى بِلَوْنٍ مُنْكَرِ؟
أَعُمَيْرَ! إنَّ أَبَاكِ غَيَّرَ رَأْسَهُ مَرُّ اللَّيالي واختلافُ الأَعْصُرِ

فَلُقِّبَ لِهَذا البيتِ بِـ(**أَعْصُر**).

ومِنْ قُدَماءِ الشُّعراءِ الَّذينَ حُفِظَتْ لَهُمْ أَشعارٌ ليسَتْ بالقليلةِ: **زهير بنُ جَنابٍ الكلبيُّ** القُضَاعيُّ، ومِن شعرِه قصيدةٌ قالَهَا حينَ غَزَا بكرًا وتَغْلِبَ وأَسَرَ مُهَلْهِلًا قبلَ أَن تتفرَّقَ القبيلتانِ، ومطلَعُها (مِن بحرِ الخفيف):

حَيِّ دارًا تَغَيَّرَتْ بالْجَنَابِ أَقْفَرَتْ مِنْ كَوَاعِبٍ أَتْرَابِ

ويقولُ فيها:

أَيْنَ أَيْنَ الفِرارُ مِنْ حَذَرِ المَوْ تِ وإِذْ تَتَّقُونَ بالأَسْلابِ؟

وهي قصيدةٌ.

فهذه أمثلةٌ مِنَ الشِّعر القديمِ الصّحيح لِشُعَراءَ سبَقُوا مُهَلْهِلًا والأفوهَ أو عاصَرُوهُما، وهو أكثر مِن ذلك، ثمَّ جاءَ مَنْ تَلاهُمْ مِنَ الشّعراءِ، فَحُفِظَتْ لَهُمْ أَشْعَارٌ، منها ما هو قصائدُ ذواتُ مقدّمات، وقصائدُ بلا

مقدّمات، ومقطّعاتٌ، وهي أشعارٌ مُتَفاوِتَةٌ في كَثْرَتِها بحَسَبِ قيمةِ الشِّعر والشّاعر والحوادث المتعلّقة بِهِما.

وتظهرُ عند النّظر في هذه الأشعار وفي غيرها ممَّا وَصَل إلينا مِنَ الشّعر القديم الصَّحيح ثلاثَةُ أمور:

أَوّلُها: أَنَّ معظَمَها قليلَةُ الأبيات، ولكنْ ليسَ مِنَ الضَّرورة أَنْ تكونَ كلُّها مِنَ المقطَّعات، فقد تكونُ بقايا قصائدَ لم تَحفظِ العربُ منها سوى هذه الأبيات وسَقَطَ سائرها، ويُؤكِّدُ هذا أَنّ مِنْ بينِ هؤلاء الشُّعراءِ مَنْ لَهُ قصائدُ طويلةٌ، مثلُ زهير بن جَنَابٍ، إذ لَهُ قصيدةٌ تزيدُ على عِشرينَ بيتًا، ابتدأها بالغَزَلِ وذِكرِ طَيْفِ صاحبتِهِ سَلْمَى، فقالَ (مِن بحر الطّويل)[1]:

أَمِنْ آلِ سَلْمَى ذَا الخَيَالُ المُؤَرِّقُ ... وقَدْ يَمِقُ الطَّيْفَ الطَّروبُ المُشَوَّقُ
وَأَنَّى اهْتَدَتْ سَلْمَى وَسائِلَ بَيْنَنَا ... وما دونَها مِنْ نَفْنَفِ الأَرضِ يَخْفِقُ

وبَلَغَ مطلَعُ القصيدةِ هذا أَحَدَ عَشَرَ بيتًا، انتقل بعدَه إلى العِتابِ والفخرِ ووَصْفِ المعركة.

---

(١) يَمِقُ: يحبُّ، وقَدْ وَمِقَهُ يَمِقُهُ إذا أحَبَّهُ. والطَّيْف: خيالُ المحبوبة. والطَّروب: الَّذي يَهُزّه الطّرَب والشوقُ والوَجْد. والوسائل: الطُّرُق. والنَّفْنَف: الصّحراء الّتي لا ماءَ فيها ولا شجر. ويَخْفِق: يضطرب.

وثانيها: أنَّ هذه الأشعارَ القديمة لم تأتِ على بحرٍ واحدٍ من بحور الشِّعر، فإنَّ منها ما هو مِنَ الطّويل أو المتقارِب أو الوافر أو البسيط أو الرَّجَز أو الكامل أو المديد أو الخفيف؛ وهذا يَعني أنَّها ابنةُ مرحلةٍ متقدّمة مِن مراحلِ الشِّعر العربيّ، كانت فيها الأوزانُ قد نَضِجَتْ واستقرَّتْ وصِيغَتْ عليها أشعارٌ كثيرةٌ قبلَ هذهِ الأشعار.

وثالثُها: أنّ هذه الأشعار قِيلَتْ في أغراضٍ مختلفة، مِنْ رثاءٍ وحكمةٍ وغَزَلٍ وهجاءٍ وحماسةٍ وفَخْرٍ وعِتاب، وهي أغراضُ الشّعر المعروفةُ؛ بل إنَّ بعضَ ذلكَ الشِّعر لم يكن في غرضٍ واحدٍ، فقافِيَّةُ زُهَيْرِ بنِ جَنَابٍ فيها الغَزَلُ والوصفُ والعِتابُ والفَخْر، ومثلُها قصيدةٌ عينيّةٌ مشهورةٌ لِلَقِيطِ بنِ يَعْمُرَ الإياديِّ أَرسلَها إلى قَوْمِهِ يُحَذّرُهم مِن جيشٍ للفُرْسِ يريد غَزْوَهُمْ، ومَطْلَعُها (من بحر البسيط):

يا دارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّها الْجَرَعَا هاجَتْ لِيَ الهمّ و الأحزانَ و الوَجَعَا

وقد زادت على خمسين بيتًا، والشّاعِرُ مِمَّنْ كانَ في القَرْنِ الرّابعِ الميلاديّ.

وما سَبَقَ يَعني أنَّ المُقَطَّعةَ والقصيدةَ كانَتَا تَسيرانِ جَنْبًا إلى جَنْبٍ، في هذا الزَّمَنِ الَّذي وصلت إلينا أَشعارٌ قليلةٌ منه، وأنَّ الشِّعر لم يكن في مراحِلِ طفولتِهِ الأُولى، بل هُوَ شعرٌ ناضجٌ في تقاليدِهِ ولُغَتِهِ وأوزانِه.

ولهذا لا يجوز التَّسليمُ للعلماءِ الَّذينَ جعلوا مُهَلْهِلًا أَو غيرَهُ أَوَّلَ مَنْ طَوَّلَ الشِّعرَ وقصَّدَ القَصِيدَ، ولكنَّ لَهُمْ عُذرًا فيما ذَهَبُوا إليه، وذلك لأَنَّهم وَجَدُوا ما وَصَل إليهم مَنَ الشِّعْرِ على هذه الحالِ مِنَ القِصَرِ، ووَجَدُوهُ شعرًا قليلًا، ووَجَدُوا لِلمُهَلْهِلِ أو غَيْرِهِ قصائدَ عدّةً طويلةً، فَظَنُّوا ذلكَ الظَّنَّ، ولم يتنبَّهُوا على ضَيَاعَ كثيرٍ مِنَ الشِّعرِ مَعَ تَقادُمِ الزَّمانِ واختلافِ الأحوال، إلّا ما كان من تنبُّهِ ابنِ الكَلْبيِّ بإحساسِ المؤَرِّخ في كتابِه (الأصنام)، فقد ذكَرَ أنَّ العَرَبَ لَمْ تحفَظْ مِن أشعارِها إلّا ما كانَ قريبَ عَهْدٍ مِنَ الإسلام؛ وهذا العهد الَّذي يُشيرُ إليه يَمْتَدّ إلى قَرِيبٍ مِنْ مئةٍ وخمسين سنةً أو مئتَيْنِ وخمسِين قبلَ الإسلام، وأَمّا ما قبلَ ذلكَ فلم يصلْ إلينا مِنْهُ إلّا القليلُ النّادِر.

وعندَ النّظَرِ إلى ما وصل إلينا من شعر الجاهليّةِ القريبةِ من الإسلام يتبيّنُ أنّ الشّاعرَ منهم يقول القصيدةَ ويقولُ المقطَّعةَ معًا، بحَسَبِ أحوالِهِ ودَواعي الشِّعر لَدَيه، وهي دواعٍ مختلفةٌ في أغراضٍ متعدّدة.

ثالثًا- متى يُعَدُّ الشِّعْرُ مُقَطَّعةً، ويُعَدُّ غيرَهُ قصيدةً؟

هذا سؤالٌ اشتغل به عددٌ من العلماء والنقّاد العرب القدماء، ورأى كلُّ واحدٍ منهم رأيًا؛ **فالأخفش** يرى أنَّ القصيدةَ ما كانت ثلاثةَ أبياتٍ فما فوق، وهذا يعني أنَّ المقطّعةَ ما كانت بيتًا أو بَيْتَيْنِ.

والفرَّاءُ يرى أنَّ القصيدةَ ما بلغ من الشِّعر عشرين بيتًا فما فوق، والمقطّعة ما كان تسعة عشر بيتًا فما دون.

ويرى **ابنُ جِنِّي** أنّ القصيدةَ ما تجاوز خمسةَ عَشَرَ بيتًا، والمقطَّعة ما كان خمسةَ عَشَرَ بيتًا فما دون.

ومن العلماء مَنْ يرى أنَّ القصيدةَ ما بلغ عَشَرَةَ أبيات أو جاوَزَها ولو ببيتٍ واحد، وما دونَ ذلك مقطّعة.

ولكن **أكثرَ النُّقّاد** يَميلون إلى أنَّ القصيدةَ ما جاوز سبعةَ أبياتٍ، وما كان سبعةً فما دونَ فهو مقطَّعة، ولذلك يَرَوْنَ مِنَ العَيْبِ في القوافي أن يُكَرّر الشّاعر الكلمةَ بلفظِها ومعناها في قوافي أبياته قبَلَ سبعةِ أبياتٍ، وهو ما يُسَمِّيه علماءُ العَرُوضِ والقوافي بالإيطاء.

رابعًا – لِمَ يكتفي الشّاعرَ بالمُقَطَّعةِ وهو قادرٌ على القصيدة؟

هذا أيضًا سؤال دار بينَ الشّعراء والنُّقّاد منذ الْجاهليّة، فمِن ذلكَ أنّ الخليلَ بنَ أحمدَ الفَراهِيدِيَّ فسَّر ذلك بقوله: «**يُطَوَّلُ الكلامُ ويُكَثَّرُ لِيُفْهَم، ويُوجَزُ ويُخْتَصَرُ ليُحْفَظَ**»، وعلّقَ ابنُ رشيقٍ على قولِ الخليلِ فقال: «**وتُستَحَبُّ الإطالةُ عندَ الإعذارِ والإنذار، والتَّرْهِيب والتَّرغيب، والإصلاح بين القبائل، كما فعل الحارثُ بنُ حِلِّزَةَ وزُهَيْر [بنُ أبي سُلْمى]**

ومَنْ شاكَلَهُما؛ وإلَّا فالقِطَعُ أَطْيَرُ في بعضِ المواضع، والطُّوَلُ لِلمواقفِ المشهورات».

ومِن ذلك قولُ أبي عَمْرِو بنِ العلاء حين سُئِلَ: «**هل كانتِ العَرَبُ تُطِيل؟ فقال: نعم، لِيُسْمَعَ منها؛ قيل: فهل كانت تُوجِز؟ فقال: نعم، لِيُحْفَظَ عنها**».

ومثلُهُ قولُ بعضِ العلماء: «**يَحتاج الشّاعر إلى القِطَعِ حاجَتَهُ إلى الطِّوال، بل هو عندَ المُحاضَراتِ والمُنازَعاتِ والتّمثُّلِ والمُلَحِ أَحوَجُ إليها منه إلى الطِّوال**».

فهذه الأقوالُ تُرْجِعُ السّبَبَ الرّئيسَ إلى **الموقف الَّذي يكون فيه الشّاعر**.

وثَمَّةَ أقوالٌ أُخرى تَدورُ حَوْلَ طُولِ القصائدِ وقِصَرِها، يُستَأْنَسُ بها لِمعرفةِ سببِ المَيْلِ إلى قولِ المقطّعات؛ ومن ذلك أنَّ النابغةَ الذُّبيانيَّ سُئِلَ: لماذا لا تُطيلُ القصائدَ كما أطالَ صاحِبُكَ ابنُ حُجْرٍ[امرؤ القيس]؟ فأجاب: « **مَنِ انْتَخَلَ انْتَقَرَ وانْتَخَبَ**»؛ وهذا يَعني النّابغةَ كانَ ينتخِبُ ما يُلْقِيهِ على النّاسِ انتخابًا يتحرَّى فيه الجَوْدة، ويَحْرِصُ على أن ينفِيَ من شعرِه ما لا يعجِبُه؛ فهو يُرجِعُ قِصَرَ قصائده بالقياس إلى قصائدِ امرئِ القَيْسِ بنِ حُجْرٍ إلى **التَّجويد والتَّثْقِيفِ وانتخابِ الأحسن**.

ومن ذلك أنَّ ابنةَ الحُطَيْئَةِ سألته: «مَا بالُ قِصارِكَ أكثرُ مِنْ طِوالِك؟ فقال: **لأنّها في الأُذُنِ أَوْلَجُ، وبالأفواهِ أعْلَقُ**»؛ فهو يُراعِي في تقصير قصائده أمرَيْنِ اثنَيْنِ، أوّلُهما **الحرصُ على ألّا يَمَلَّ مَنْ يستمعُ إليه**، وثانيهما **الحرصُ على أن يُحْفَظَ ما يقولُه**، لأنّ القولَ إذا طال كان مَظِنَّةَ النّسيان.

ونحوُ هذا ما كان مِن أبي سفيانَ بنِ الحارث بنِ عبدِ المطَّلِب وقَوْلِه لعبدِ اللهِ بنِ الزِّبَعْرَى: «**حَسْبُكَ مِنَ الشّعرِ غُرَّةٌ لائحة، وسِمَةٌ واضحة**»؛ وفي روايةٍ أنّه قِيلَ لعبدِ الله: «إنّك تُقَصِّرُ أشعارَك؛ فقال: **لأنَّ القِصارَ أَوْلَجُ في المَسامع، وأَجْوَلُ في المَحافِل**»؛ وقالَ تارةً أُخرى: «**يَكْفِيكَ مِن الشِّعرِ غُرَّةٌ لائحة، وسُبَّةٌ فاضحة**».

ونحوُهُ أيضًا جوابُ الفرزدقِ حينَ قيل له: ما صَيَّرَكَ إلى القصائِدِ القِصارِ بعدَ الطِّوال؟ فقال: «لأنّي **رأيتُها في الصُّدورِ أوقَع، وفي المَحافِلِ أَجْوَل**».

وقِيلَ لبعضِ الشّعراء: «لِمَ لا تُطِيلُ الشِّعر؟ فقال: **حَسْبُكَ مِنَ القِلادةِ ما أحاطَ بالعُنُق**».

فهؤلاءِ جميعًا يُرجِعُون الأمرَ إلى **الرَّغبةِ في شُيوعِ شعرِهم، وانتشاره بين النّاس**.

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ القصيدةَ إذا طالت وكانت جيِّدةً أقلُّ شيوعًا، وفي المعلَّقاتِ وكثيرٍ مِنَ المراثي وبعضِ مُطَوَّلاتِ الفحولِ والصَّعاليكِ مثالٌ واضح على ذلك.

ولا بدّ قبلَ الحديث عن أغراضِ المقطَّعات مِن إعادةِ التّنبيه على أنَّ الشّعراءَ الفحولَ تحتوي أشعارُهم مِنَ المقطّعات مثلَ ما تحتوي مِن القصائدِ الطِّوال، لأنَّ الشّاعِرَ المتميّزَ لا يَستغني عن أحَدِ الشَّكْلَيْنِ في حياتِهِ ومواقفها الّتي يعبِّرُ عنها بشعره؛ على أنَّهُ يُلاحَظُ أنّ المقطَّعاتِ تكثُرُ في أشعارِ الفُرسانِ والصَّعاليكِ المشهورين الَّذين لهم دواوينُ، في حين تَكْثُرُ القصائدُ في أشعار الفحول المشهورين، وليسَ ذلك بالغريب، فإنّ الفحولَ كانَ الشِّعرُ همَّهُم الَّذي يحرصون على تجويده وتطويله، في حين أنّ الفرسان والصّعاليك يكونُ الشّعرُ نَفَثاتٍ يُعبّرونَ بها في الغالب عن مواقفَ عابرةٍ في حياتهم القلِقَة، ويكونُ الشِّعرُ تَنْفِيسًا عن نُفوسِهِمْ، أو تَرْشيحًا وتعميقًا لمواقفهم؛ على أنّنا يجب ألّا نَغْفُلَ عن ضياع كثيرٍ من شعرِهِم، فوصل إلينا بعض قصائدهم على شكل مقطّعات.

خامسًا – أغراضُ المُقَطَّعات في أشعار الجاهليّين:

يرى النّاظر فيما وصل إلينا من مقطّعات الْجاهليّين أنّها تكادُ تتعرّض لمعظم أغراض الشّعر المعروفة، من حماسةٍ وفخر، ورثاء وتَحَسُّرٍ

وتفجّع، وهجاءٍ ووَعِيد، ومدحٍ واعتذار، وغَزَلٍ، ووَصفٍ، وحكمةٍ واعتبار؛ وقد مرَّت شواهدُ على **الحماسة** في شعر هند بنةِ بيّاضة الإياديّة، **والتّحسُّر والتّفجُّع** مع **الفخر** في شعر جَذِيمةَ الأبرش، **والغزل** في شعر حَزِيمةَ بن نَهْد.

ومِنَ **الحكمة** المرافقة للنّصيحة قولُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ التّميميّ في رسالةٍ شعريّة:

أيا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ ... يَزيدَ بْنَ عبدِ الله ما أَنا قائِلُ
بآيةِ أنّي لَمْ أَخُنْكَ وأنّهُ ... سِوى الحقِّ مهما يَنْطِقِ النّاسُ باطِلُ
فقَوْمُكَ لا تَجْهَلْ علَيْهِمْ ولا تَكُنْ ... لَهُمْ هَرِشًّا تَغْتابُهُمْ وتُقاتِلُ
وما يَنْهَضُ البازِي بغَيْرِ جَناحِهِ ... ولا يَحْمِلُ الماشِينَ إلّا الحَوامِلُ
ولا سابقٌ إلّا بِساقٍ سَلِيمَةٍ ... ولا باطشٌ ما لم تُعِنْهُ الأنامِلُ
إذا أنتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ والخَنَا ... أَصَبْتَ حَلِيمًا أو أَصابَكَ جاهِلُ

وهذه مقطّعةٌ قالَها شاعرٌ حكيمٌ ذو عقلٍ رزينٍ ورَوِيَّةٍ في حياتِهِ وشعرِه، فجاءت مقطَّعةً مُحْكَمَةَ الصُّنْع، بعث بها إلى (يزيدَ) مُمَهِّدًا في بدايتها بأنّه ناصحٌ غيرُ غاشٍّ ولا يقول لَهُ غيرَ الحقّ، ثمّ نَصَحَه بأنْ يحرِصَ على قومِهِ بالبُعدِ عن إيذائهم أو جَرِّ الشَّرِّ إليهم، فإنّهم له كالجناحَيْنِ للطّائر، والأقدام للماشي، والسّاقِ السَّليمةِ للمُسابِق، واليدِ للضّارب، وختَمَها ببيتٍ من

الحكمة يُذكّره فيها بأنّ الإقدام على الطَّيْشِ والنَّزَقِ يُؤَدّي بصاحبِه إلى أن يُؤذيَ حليمًا لا يستحقُّ الإيذاء، أو أَنْ يَرُدَّ عليه جاهلٌ بِطَيْشٍ كطَيْشِه ونَزَقٍ كنَزَقِه.

ومن المقطّعات الّتي احتوت على **هجاءٍ ووَعِيدٍ** قولُ زُهَيْرِ بن أبي سلمى المُزَنيِّ، وقد أغار الحارثُ بنُ ورقاءَ الصَّيْداويُّ على قومِهِ فأخذ إبلَهُ وراعيَهُ (يسارًا)، وبلَغَهُ أنَّ بعضَ قومِ الحارث طلبوا إليه أن يَقْتُلَ الرَّاعيَ فأبى، فقال زهيرٌ[1]:

أَبْلِغْ بَنِي نَوْفَلٍ عنّي، فقَدْ بلَغُوا ... مِنِّي الحَفِيظَةَ لَمّا جاءَنِي الخَبَرُ
القائلينَ: يَسارًا، لا تُنَاظِرُهُ، ... غِشًّا لِسَيِّدِهِمْ في الأَمْرِ إذ أَمَرُوا
إنَّ ابْنَ وَرْقاءَ لا تُخْشَى غَوائِلُهُ ... لَكِنْ وَقائعُهُ في الحربِ تُنْتَظَرُ
لولا ابنُ وَرْقاءَ والْمَجْدُ التَّلِيدُ لَهُ ... كانوا قليلًا، فما عَزُّوا وما كَثُرُوا
والْمَجْدُ في غَيْرِهِمْ لولا مَآثِرُهُ ... وصَبْرُهُ نَفْسَهُ والْحَرْبُ تَسْتَعِرُ
أَوْلَى لَهُمْ ثُمَّ أَوْلَى أَنْ تُصِيبَهُمُ ... مِنِّي بَواقِرُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ

---

(١) الحفيظة: الغضَب. لا تناظِرُهُ: لا تؤَخّرْهُ؛ نفيٌ أراد بهِ النّهيَ. والغوائل: جمع الغائلة، وهي الدّاهية. والتّليد: القديم المُتَوارَث. وأَوْلى لهم: عبارةٌ من معانيها التّهديدُ. والبَواقر: جمع الباقِرة، من قولهم: بقر بطنَه إذا شقّه، يريد بها ما يفْسِدُ عليهم حياتَهم؛ ويُروى: (فَواقِر)، وهو جمع فاقِرَة، وهي الدّاهيةُ الّتي تكْسِرُ فَقارَ الظَّهر. وتَعَلَّل: أي تتَعلَّل، بمعنى تتسَلَّى. وشَنعاء: قبيحة.

وأَنْ تَعَلَّــلَ رُكْبــانُ الــمَطِيِّ بِهِــمْ بِكُــلِّ قافِيَــةٍ شَــنْعاءَ تُشْــتَهَرُ

وزُهَيْرٌ راوِيَةُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ، ومِن ثَـمّ نَلْحَـظُ في الأبيـات براعتَـهُ في النَّيْلِ مِنْ بَنِي نَوْفَلٍ وتَخْلِيصِ الحارثِ بنِ ورقـاءَ والثنـاءِ عليـهِ معَ أنَّ القـومَ قومُـه؛ وهـذا لـيسَ ببعيـدٍ مِـن شـاعِرٍ معـروفٍ بتَحْكِيـكِ شِـعره وتنقيحـه وتجويده، فلا شكَّ في أنّ ذلك سيتسَرّب إلى أشعارِه الّتي يقولها على عَجَلٍ، كهـذه القطعـة الّتـي لم يكـن الوقـتُ يسـمح لـه بتحكيكهـا وتنقيحهـا، فقـد جاءَتْ مُحْكَمَةً إلّا في بعض عباراتها، كالبيت الثّاني، إذ قدّمَ (يسـارًا) ونصـبه بفعلٍ محذوفٍ، وجاء بصيغةِ النّفْيِ وهـو يريـد النَّهْـيَ، ثـمّ جـاء بعبـارة (إذ أمَروا) تَتْمِيمًا للوزن والقافية، وكذلك قولـه في البيـت الرّابـع (ومـا كَثُـروا) جاءَ تتميمًا للوزن والقافية.

ويَحْسُنُ أن يُخْتَمَ الحـديث عـن مـنهج المقطّعـات بالإشـارة إلى بعـض الأمور المتعلّقة بها:

وأوّلُ أمرٍ يَلْفِتُ الانتباه هو أنّ **هذه المقطّعات جاءت مُحْكَمَـةً كاملـةَ الصّياغةِ** في لغتها وتراكيبها وأوزانها وسائر مقوّمات الشّعرِ الْـجاهليّ.

والأمر الثّاني هو أنّ **المقطّعةَ تكون متلاحمةَ الأجزاء مترابطةَ الأبيات،** وذلك لِوَحْدةِ الـموقف الـمحرّض على القول، والهـدفِ الَّـذي يقصـد إليـه الشّاعر.

والأمر الثّالث أنّ المقطّعة تُخَصَّص في العادة لغَرَضٍ واحدٍ، وهذا يعني أنّها ابنةُ موقفٍ واحدٍ مِن مواقفِ الحياة الّتي يمرُّ بها الشّاعر، لا يسمح لَهُ بإطالةِ القول، فيأتي شعره قصيرًا، معبّرًا عن ذلك الموقفِ وَحدَه؛ ويؤكد ذلك أنّ كثيرًا من المقطّعات كانت رسائلَ شعريَّةً يبدؤُها الشّاعر بعبارةٍ مثلِ (أيا راكبًا إمّا عرضتَ فبلّغَنْ ...) أو (فأبلغْ إنْ عَرَضْتَ ...) أو (أبلغ بني فلان ...) أو نحو ذلك من العبارات الّتي تبدأ بها الرّسائل الشّعريّة.

والأمر الرّابع هو أنّ **القيمة الفنّيّة للمقطَّعات تتفاوت بين شاعر وآخَر**، فالشّعراء الفحول كأوسِ بنِ حَجَرٍ و زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمَى والنّابغةِ وامرئِ القَيْسِ تكون مقطّعاتُهم أجوَدَ من مقطَّعات مَنْ هُمْ دونَهُم من الشّعراءِ.

والأمر الخامس أنّ مَثَلَ المقطّعة والقصيدة في الشّعر كَمَثَلِ الأُقصوصَة والقصّة في النّثر؛ إذ تبتعِدُ الأُقْصُوصةُ عن التّفصيل في الوصف والحوار ونحو ذلك من وسائل البناء الفنّيِّ الّتي يَحْرِصُ عليها القاصُّ في الثّانية.

وبذلك يتبيَّنُ أنَّ (المقطّعات) منهجٌ أصيلٌ مِن مناهج الشُّعراءِ الْجاهليِّينَ، ويكاد يكون معظمُ ما وصل إلينا من قديمِ الشِّعرِ الْجاهليِّ مِنْ

هذا المنهج، لا لأنَّ الشُّعراءَ الْجاهليِّين القدماءَ لم يَسْلُكوا منهجَ القصيدة، بل لِضياعِ معظمِ أشعارِهم معَ تَطاوُلِ الزَّمان، وإنّما بقي منها ما لَهُ ارتباطٌ بحوادثَ مُهِمَّةٍ في حياتهم أو بأمثالٍ سارت على ألسنةِ العرَبِ حفظوا ما يتعلّق بها مِن قصص وما رافقها من شعر؛ وأنّ الشّاعرَ لا غِنى له عن صياغة شعرِهِ وأغراضِه المختلفة على منهج المقطّعة كما يصوغه على منهج القصيدة، بأوزان الشّعر المعروفة وبقيّةِ أَدواتِه الفنّيّة.

****

مصادر ومراجع للاستزادة:

- **كتاب الصّناعتين**: لأبي هلال العسكريّ.
- **كتاب العمدة**: ابن رشيق القيروانيّ.
- **العصر الجاهليّ**: د. شوقي ضيف.
- **المقطّعات الشّعريّة في الجاهليّة وصدر الإسلام**: مسعد بن عيد العطويّ.
- **الموسوعة العربيّة** / المجلّد التّاسع عشر.

الرّثاء في الشّعر الجاهليّ

تمهيد في المصطَلَح:

إنّ النّظرَ في لغة العَرَبِ يدلُّ على أنّهم استعملوا أربعة ألفاظ رئيسيّة للدّلالة على موقف الحيّ من الميت، وهي: الرّثاء، والنّدْب، والتّأبين، والتّعزِّي أو العَزَاء، سواءٌ أكانَ ذلكَ شعرًا أم نثرًا؛ فقد جاءَ في كتب اللّغة:

أ - **رثى فلانٌ فلانًا، يرثيه، رَثْيًا ورِثاءً ومَرْثاةً ومَرْثِيَةً، ورثّاهُ:** إذا بكاه بعدَ مَوْتِه، وإذا مَدَحَهُ بعدَ موتِهِ وبكاه أيضًا، وإذا رَقَّ لَهُ، لأنَّ الميت تخشع له القلوب وتَرِقّ له النّفوس؛ ويُقال أيضًا: **رثأْتُهُ.**

ب - **وندَبَه، نَدْبًا:** إذا بكى عليه وعدَّدَ مَحاسِنَه، وهُوَ مِنَ النَّدْبِ للْجِرَاحِ، لأنَّه احتراقٌ ولَذْعٌ مِنَ الحُزْنِ.

ج - **وأَبَّنَهُ، تأبينًا:** إذا ذكَرَهُ بعدَ موتِهِ بخير، وإذا مَدَحَهُ بعدَ موتِهِ وبكاه؛ وأصلُ التّأبينِ في اللّغة اقتفاءُ الأثَر ومُراقَبَةُ الشَّيْءِ، وقِيل لمادحِ الميتِ (مُؤبِّنٌ) لاتِّباعِهِ آثارَ فَعَالِهِ وصنائِعِه؛ ويُقال أيضًا: **أَبَّلَهُ تَأبيلًا.**

د – **وتعزَّى عنه**: إذا تَصبَّرَ وتَسَلَّى عنه بعد مُصيبتِهِ به، وقد عزَّيتُهُ عنه: إذا سلّيتَهُ ودعوتَهُ إلى الصَّبْر؛ والعَزَاءُ: هو الصَّبْرُ والسُّلْوانُ عَنِ الـميت؛ وقريبٌ مِنَ التَّعَزِّي (**التَّأَسِّي**)، من قولِـهِم: تأسَّى فلانٌ.

والنّظر في هذه الألفاظ وما تدلّ عليه يُبيّن أنَّ (الرّثاء) هو اللَّفظ الْـجامِعُ لها، فإنّ البُكاءَ على الـميتِ هو أوّلُ مظاهِرَ مَوْقِفِ الحيّ منه، ويَتْبَعُهُ تعديدُ محاسنِهِ وذِكْرُهُ بالخَيْر، ثُمَّ إظهارُ الصَّبْرِ والسُّلوان؛ ومِنْ ثَمّ يُطلَقُ (الرِّثاء) على جميع أَضْرُبِ الشِّعْرِ الَّذي يُقال في الـميت، ويُخَصَّص البكاء عليه مَعَ تعديد محاسنِه بتسميةِ (النَّدْب)، ويُخَصَّصُ ذِكْرُ الـميت بالخير إِنْ لَمْ يُرافقْهُ البكاء باسم (التّأبين)، ويُخَصَّصُ التَّصَبُّرُ والتَّسَلِّي والتَّأَسِّي بالآخرينَ باسم (التّعزِّي) أو العَزَاء.

أوَّلًا: صِلَةُ الرِّثاء بأغراض الشِّعر الأُخرى:

ما سَبَقَ مِنْ الألفاظ ومعانيها يدلُّ على **صلةٍ وَثيقةٍ بين الرِّثاءِ والـمدْح**، مِنْ جِهَةِ تَعْدادِ الـمحاسِنِ وتتبُّعِ آثارِ الفَعَالِ والصّنائِعِ؛ ولهذا يقولُ قُدامَةُ بنُ جعفر في كتابه (نَقْد الشّعر): «**ليس بين المَرْثِيَةِ والمِدْحَةِ فَصْلٌ إلّا أَنْ يُذْكَرَ في اللّفظ ما يَدُلُّ على أَنَّهُ هالكٌ، مثلُ (كانَ)، و(تَوَلَّى) و(قَضى**

نَحْبَهُ) وما أَشْبَهَ ذلكَ؛ وهذا ليسَ يَزِيدُ في المعنى ولا يَنْقُصُ منه، لأنَّ تأبينَ الميتِ إنَّما هُوَ بمِثْلِ ما كانَ يُمدَحُ بِهِ في حياتِهِ؛ وقد يُفْعَلُ في التّأبين شَيْءٌ ينفصِلُ بِهِ لفظُهُ عن لفظِ المدح بغيرِ (كان) وما جرى مَجْراها، وهو أن يكونَ الحيُّ وُصِفَ مَثَلًا بالجودِ، فلا يُقال (كانَ جوادًا) ولكن بأنْ يُقالَ: (ذهبَ الْـجُود) أو (فَمَنْ لِلْجُودِ بَعْدَه) ومثل: (تَوَلَّى الْـجُودُ) وما أَشْبَهَ هذه الأشياء»؛ وهذه الصّلة الّتي يشير إليها النّقّاد إنّما هي في الـمعاني الـمذكورة، لا مِنْ جِهَةِ الدّوافِعِ والشُّعُورِ، فلا ريبَ في أنَّ الإعجاب بالـممدوح أو الطَّمَع بما عنده أو الرَّغبَةِ في خَيْرِه غيرُ الوفاءِ للميتِ والحزنِ والْـجَزَعِ والتّأسُّف عليه.

ولا تقتصرُ صِلَةُ الرِّثاءِ بأغراضِ الشِّعر على الـمدح، فإنَّ **صلتَهُ بالوَصفِ** واضحةٌ في تعديدِ الـمحاسِنِ ووَصْفِ الـميتِ في حياتِهِ ومَوْتِهِ وفي أحوالِهِ الأُخْرى، وكذلك **صِلَتُه بالحماسة والفخر والهجاء والحكمة،** فإنَّ كثيرًا مِن الـمَرَاثي قِيلَتْ على أَثَرِ الحروب والوقائع بين القبائل، فكانتِ الحماسةُ تُخالِطُ الرِّثاءَ بِمعانٍ تدعو إلى الأَخْذِ بالثَّأر وتُعَيِّرُ القاعدين عن طلَبِهِ أو الرَّاغبين في الـمالِ والدِّيَةِ عَنِ الثأر والقَوَد، وما يكون مِن تهديدِ الأعداءِ والسَّخَطِ عليهم وهجائِهِم، وتتخلَّلُ ذلكَ معانٍ كثيرةٌ مِنَ الحكمة والتَّأَسِّي

والاعتبارِ بِمَنْ مَضى أو هلَكَ مِنَ الإنسِ وغيرِهم؛ ولهذا يقولُ ابنُ رَشيق في كتابه (العمدة): «**ومِنْ عادةِ القُدَماءِ أَنْ يَضْرِبُوا الأمثالَ في المراثي بالملوكِ الأَعِزَّةِ والأُمَمِ السّالفةِ، والوُعُولِ المُمْتَنِعَةِ في قُلَلِ الْجِبال، والأُسودِ الخادِرَةِ في الغياض، وبِحُمُرِ الوَحْشِ المُتَصَرِّفةِ بينَ القِفار، والنُّسورِ والعِقْبانِ والحيّاتِ، لِبَأْسِها وطُولِ أعمارِها**»؛ بَلْ إنّ عددًا مِن المَرَاثي ابتدأَها الشُّعراءُ بضُروبٍ مِنَ الحكمة كالَّذي في مراثي لَبِيدِ بنِ رَبيعةَ لأخيهِ ولِمَن مَضَى مِن آبائِهِ وأبناءِ قبيلتِهِ وللنُّعمانِ بنِ المُنْذِر مَلِكِ الحِيرة، وهذا راجِعٌ إلى طبائِعِ الشُّعراءِ ومواقِفِهم مِنَ الحياةِ، فإنَّ النّاظِرَ في شعرِ لَبيدٍ وحياتِهِ يجدُ أنَّه كان رجلًا مُتَأَلِّهًا في الْجاهليّةِ مُتَأَمِّلًا في الحياةِ ووُجوهِها.

ثانِيًا: دوافع الرّثاء:

أيًّا كانت الصِّلَة بين الرِّثاءِ وغَيْرِه مِن أغراض الشّعر في المعاني فإنَّ الدَّافِعَ إلَيْهِ غَيْرُ الدَّافِعِ إلى ما سِواه، ولا يقتصر الرّثاء على دافعٍ واحدٍ، وإنْ كان الأصلُ فيه هو الحزن على الميت الَّذي قطَعَ الموتُ صِلَتَهُ بالحيّ، فإنّ مِنَ الشّعراء **مَنْ يرثي قريبًا أو صاحبًا حميمًا**، فيكونُ الجَزَعُ والحزنُ والتفجُّعُ

أكبَرَ دوافعِهِ، ومنهم **مَنْ يرثي فارسًا مِن الفُرْسانِ** فيكونُ الغَضَبُ والشُّعورُ بفَقْدِ جانبٍ مِنَ القوَّةِ وبالنَّيْلِ مِنْ عِزَّةِ القبيلةِ وامتناعها دافعًا آخَر، ومنهم **مَنْ يرثي سيِّدًا أو شريفًا** ذا فضلٍ فيكونُ الإعجابُ أو الإكبارُ أو الوفاءُ وراءَ رثائِهِ، ومنهم **مَنْ يرثي نفسَهُ** فيكونُ الشُّعور بالضّعفِ أمامَ الـموتِ والانكسارُ له والتَّعَلُّقُ بالحياة وبالأهل والولد دافعَهُ إليه؛ فإذا كانَ الـموتُ أمرًا جامعًا مَقْضِيًّا على كلِّ نفسٍ فإنَّ دوافِعَ رثائها لا يجمعُها جامعٌ واحدٌ، فلكلِّ قصيدةٍ مِنَ الـمراثي دافعُها أو دوافعُها الخاصّةُ الـمتعلِّقة بالـمرثيّ وصلةِ الرّاثي به، وطريقةِ مَوْتِهِ، وبالرَّاثي نفسِهِ ونَظْرَتِهِ إلى الحياة والـموت، ومَوْقِفِهِ منهما ومِنَ الـمرثيّ ومِن أهلِه؛ فليسَ رثاءُ الأخِ كرثاءِ الصّديق، ولا رثاءُ الأبِ كرثاءِ الزَّوْجِ، ولا رثاءُ القتيل كرثاءِ مَنْ مات حَتْفَ أنفِهِ، ولا رثاء الصّحيح كرثاءِ الـمريض، ولا رثاء الـمُسِنِّ كرثاء الشّابّ، ولا رثاء الرَّجُلِ كرثاءِ الـمرأة، ولا رثاءُ الشّاعِرِ الفارسِ كرثاء الشّاعِرِ غيرِ الفارس، ولا رثاء الـمُتَأَلِّه كرثاء غير الـمتألِّه؛ وهكذا يكونُ الاختلافُ كبيرًا لا يجمعُهُ دافع واحد ولا شعورٌ واحد، وإن كانَ الـموتُ واحدًا.

ثالثًا: مشهوراتُ الـمَراثي وأصحابُها:

الـمَراثي كثيرةٌ؛ إذ لا يَكادُ شاعرٌ فَقَدَ حميمًا أو قريبًا إلّا ولَهُ فيه شعرٌ، سواءٌ أَوَصلَ إلينا ذلكَ أَمْ لم يصل؛ ولكنَّ ما وصلَ إلينا مِن شعر الرِّثاء الْـجاهليِّ ليسَ بالقليل، ولهذا خصّص عددٌ من العلماء كُتُبًا كاملَةً للمَراثي، كالـمدائنيّ في كتابه (الـمَراثي) والـمُبَرِّد في كتابه (التّعازي والـمَرَاثي) ومحمّد بن العبّاس اليزيديّ في كتابه (الـمراثي)، وجَعَلَ النُّقَّادُ وأصحابُ الاختياراتِ الشِّعريّةِ مِنَ الرِّثاء بابًا قائمًا بنفسِهِ، وحينَ صَنَّفَ محمّدُ بنُ سَلَّامٍ الْـجُمَحِيُّ كتابَهُ (طبقات فُحول الشُّعراء) جعلَ الجاهليّينَ عَشْرَ طبقاتٍ، ولكنَّهُ أَفْرَدَ أصحابَ الـمَرَاثي بطبَقةٍ خاصَّةٍ غيرِ هذه الطّبقاتِ العَشْرِ، لأنَّه وَجَدَ عَدَدًا مِنَ الشُّعراءِ تَمَيَّزوا في الرِّثاء عَلَى قلّةِ مَنْ تَميّزوا فيه، وفي أشعار هؤلاء صِدْقُ الحسرةِ واللَّوْعَةِ والبُعْدُ عن التَّكَلُّف مَعَ جَوْدَةِ الشِّعْرِ وتعَلُّقِهِ بحقيقةٍ كُبرى مِن حقائقِ الوجودِ قلَّ الـمُبَرِّزونَ فيها مِنَ الشّعراءِ، فلعلَّهُ لذلك أفرَدهم في طبقةٍ، وإنْ كانَ في الشّعراء الآخَرِينَ مِمَّنْ لَـمْ يجعَلْهُم في هذه الطَّبَقةِ مَنْ تميّز في الرِّثاء، كأَوْسِ بنِ حَجَرٍ ولَبِيدِ بنِ رَبيعةَ والـمُهَلْهِل.

وشعراءُ طبَقَةِ أصحاب المَراثي عندَ ابنِ سلّام هم أربعةُ شُعراء:

- مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرَةَ اليَرْبُوعيّ التّميميّ، رثى أخاه مالكًا.

-والخنساءُ بنتُ عَمْرِو بنِ الحارثِ بنِ الشَّريدِ السُّلَميَّة، رثَتْ أَخَوَيْها صَخْرًا ومُعاوية.

- وأعشى باهِلَةَ: عامرُ بنُ الحارثِ بنِ رِياحٍ، رثى الـمُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهليَّ.

- وكَعْبُ بنُ سَعْدٍ الغَنَويّ، رثى أَخاه أبا الـمِغْوار.

ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا مِن أخبارهم، وأَنْشَدَ بعضًا مِنْ قصائدهم الـمشهورة، فقال عن متمِّم: «وبكى متمِّمٌ مالكًا فأكثرَ وأجادَ، والـمقدَّمَةُ مِنْهُنَّ [يعني من قصائده] قولُه:

لَعَمْـرِي، ومـا دَهْـرِي بِتَـأْبِينِ هالِـكٍ ولا جَـزَعٍ مِمَّـا أَصـابَ وأَوْجَعَـا »

وقال عن الخنساء: «وبكَتِ الخنساءُ أَخَوَيْها صَخْرًا ومُعاويةَ، ... فقالت في صخرٍ كلِمَتَها الّتي تقولُ فيها:

وإنَّ صَـــخْرًا لَتَـــأْتَمُّ الهُـــداةُ بِـــهِ [كأَنَّـــهُ عَلَـــمٌ في رأْسِـــهِ نـــارُ]

وقالت في مُعاويةَ:

أَلا مـــا لِعَيْنِـــكِ أَمْ مَـــا لَهَـــا لَقَـــدْ أَخْضَـــلَ الـــدَّمْعُ سِرْبالَهَـــا

وقالت في صَخْرٍ الكلِمةَ الأُخرى:

أَمِـنْ حَـدَثِ الأيّـامِ عَيْنُـكِ تَهْمُـلُ وَتَبْكِي عَلى صَخْرٍ، وفي الدَّهرِ مَذْهَلُ»

وقال عن أَعْشى باهلةَ: «رثى الـمُنْتَشِرَ بنَ وَهْبٍ الباهليَّ قَتِيلَ بَنِي الحارث، فقال في كلِمَتِه:

لا يَـأْمَنُ النَّـاسُ مُمْسَـاهُ ومُصْـبَحَهُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وإنْ لَـمْ يَغْزُ يُنْتَظَرُ»

وأنشَدَ منها أبياتًا.

وقال عن كعبِ بنِ سعدٍ الغَنَوِيِّ: «رثى أخاهُ أَبا الـمِغْوارِ بكَلِمَةٍ قال فيها:

فَخَبَّرْتُمَـانِي أَنَّـما المَـوْتُ بِـالقُرَى فَكَيْـفَ وَهَـذِي رَوْضَـةٌ وكَثِيـبُ»

وأنشدَ منها أبياتًا.

وحينَ تحدَّثَ عن لَبِيدِ بنِ ربيعةَ -وقد وضعَهُ في الطّبَقةِ الثّالثةِ من شعراءِ الْـجاهليّة- نَبَّهَ على تميُّزِه في رثاءِ قَوْمِه وأَخيهِ أَرْبَدَ، وممّا قاله فيه: «**وكان في الجاهليّةِ خَيْرَ شاعرٍ لِقَوْمِهِ، يمدحُهم ويَرْثيهم ويُعَدِّد أيّامَهُم ووقائعَهم وفُرسانَهم**».

وعدّد المبرِّدُ المراثيَ المشهورَة، فقال:

«مَراثي الجاهليّة المشهورةُ المُسْتَحْسَنةُ المُستَجادةُ المقدَّمةُ معلومةٌ موسومة، منها قصيدةُ مُتمِّم ابنِ نُوَيْرَةَ في أخيه مالِكٍ، على أنّ سائرَ شعره غيرُ مَذموم، وإنْ تقدَّمَتْهُنَّ العَيْنِيَّةُ الّتي أوّلُها:

لَعَمْرِي، وما دَهْرِي بِتَأْبِينِ هالِكٍ وَلا جَزَعٍ مِمَّا أَصابَ فأَوْجَعَا

ومنها قصيدةُ دُرَيْدٍ [يَعْنِي ابنَ الصِّمَّةِ الْـجُشَمِيّ] في أَخيهِ عَبْدِ اللهِ الّتي أَوّلُها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعاقِبَةٍ، وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

ومنها قصيدةُ كعبِ بنِ سعدٍ الغَنَوِيِّ يَرثي أخاه، وهي الّتي أوّلُها:

تَقُولُ سُلَيْمَى: ما لِجِسْمِكَ شاحِبًا كأَنَّكَ يَحْمِيكَ الشَّرابَ طَبِيبُ

ومنها قصيدةُ أَعْشى باهِلَةَ أَبِي قُحافَةَ، وهي الّتي أوّلُها:

إنِّي أَتَتْنِي لِسانٌ لا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ».

ثمَّ أَشارَ إلى **مَراثي الخنساءِ** في أَخَوَيْهَا، **ومَراثي أَوْسِ بنِ حَجَرٍ التَّميميّ** في فَضالةَ بنِ كَلَدةَ الأسديّ، **ومَراثي لَبِيدٍ** في أخيه أَرْبَدَ، **ومَراثي مُهَلْهِلٍ** في أَخيهِ كُلَيْبٍ.

وقال عن قصيدةِ دُرَيْدٍ بعد ذلك: «**وكان الأصمعيُّ يقدِّمُها جدًّا، وهِيَ أَهْلُ ذاكَ**»، وبالرُّجُوع إلى (الأصمعيّات) يتبيَّنُ أنّ الأصمعيَّ اختارَ قصيدَةَ دُرَيْدٍ وقصيدةَ أَعْشى باهلةَ وقصيدةَ كعب بن سعد وبعض مراثي المهلهل.

فهؤلاءِ أشهرُ شعراء المراثي وأشهر قصائدهم، ومعظم هذه القصائد طِوالٌ، فيها الرّثاء بأشكالِه المختلفةِ مِن بكاءٍ ونَدْبٍ يُعَدِّدُ فيه الشّاعرُ مَحاسِنَ الميت ويَبكيه، وتَعَزٍّ تُرافِقُه الحكمةُ والتَّأَسِّي، وفي بعض

الـمقطَّعاتِ تأبينٌ يكتفي فيه الشّاعرُ بذكر محاسنِ الـميت وتَعدادها؛ ويأتي في سياق ذلك معانٍ عدّة تتكرّر في القصائد والـمقطعات.

رابِعًا: أمثلةٌ من مراثي الْـجاهليّين، وألفاظها الغريبة، ومعانيها:

الـمثال الأوّل:

لِلْخَنْساءِ، وهي تُماضِرُ بنت عمرِو بنِ الحارث بن الشَّريد، من بني سُلَيْمٍ، وهي من أشهر شواعر العرب، عاشت أكثر عمرها في الْـجاهليّة، وأدركت الإسلامَ فأسلمَتْ، وأكثرُ شعرِها في رثاء أَخَوَيْها صخرٍ ومُعاوية، وكانا قد قُتِلا في الْـجاهليّة، وكانت تقول الأبياتَ اليَسيرة، فلمّا أُصيبَتْ بأَخِيها صَخْرٍ جَدَّتْ وأَجادَت، وكان معاويةُ أخاها لأبيها وأُمِّها، وصخرٌ كان أخاها لأبيها، وكانت به أَمَسَّ لِفَضِلِه ولِشِدَّةِ بِرِّه بها، فقد شاطَرَها مالَهُ مَرَّات؛ وقُتِلَ معاويةُ أوّلًا فثَأَرَ بِهِ صَخْرٌ، ثُمّ قتلَهُ بنو أسد؛ فرثَتْهُ بقصائدَ كثيرة، ومنها قولُـها:

١-قَـــذًى بِعَيْنِـــكِ أَمْ بِـــالْعَيْنِ عُـــوَّارُ؟ أَمْ أَوْحَشَـتْ أَنْ خَلَـتْ مِـنْ أَهْلِهَـا الـدَّارُ؟
٢-تَبْكِـي لِصَـخْرٍ هِـيَ العَـبْرَى وقَـدْ ثَكِلَـتْ ودُونَـــهُ مِـــنْ جَدِيـــدِ الـــتُّرْبِ أَسْـــتارُ
٣-لا بُـــدَّ مِـــنْ مِيتَـــةٍ فِي صَرْفِهَـــا غِـــيَرٌ والدَّهْـــرُ فِي صَرْفِـــهِ حَـــوْلٌ وأَطْـــوارُ

٤-يـا صَـخْرُ! وَرّادَ مـاءٍ قَـدْ تَنـاذَرَهُ ... أَهْـلُ المِـياهِ، وَمَـا في وِرْدِهِ عَـارُ

٥-مَـشْيَ السَّبَنْـتَى إِلى هَيْجـاءَ مُعْضِـلَةٍ ... لَـهُ سِـلاحَانِ أَنْيـابٌ وأَظْفـارُ

٦-عَبْـلُ الـذِّراعَيْنِ، قَـدْ تُخْشَـى بَـوادِرُهُ ... عِنْـدَ الوَقِيعَـةِ لِلأَقْـرَانِ هَصَّـارُ

٧-فَـمَا عَجُـولٌ عَـلَى بَـوٍّ تُطِيـفُ بِـهِ ... لَـهَا حَنِينَـانِ: إِعْـلانٌ وَإِسْرارُ

٨-تَرْتَـعُ مـا غَفَلَـتْ حَـتَّى إِذا ادَّكَـرَتْ ... فَـإِنَّما هِـي إِقْبـالٌ وإِدْبـارُ

٩-يَوْمًـا بِأَوْجَـدَ مِنِّـي حِـينَ فـارَقَنِي ... صَخْـرٌ، ولِلـدَّهْرِ إِحْـلاءٌ وإِمْـرارُ

١٠-وإِنَّ صَخْـرًا لَوَالِينـا وسَـيِّدُنا ... وإِنَّ صَـخْرًا إذا نَشْـتُو لَنَحَّـارُ

١١-وإِنَّ صَـخْرًا لَـتَأْتَمُّ الهُـداةُ بِـهِ ... كأَنَّـهُ عَلَـمٌ في رَأْسِـهِ نـارُ

١٢-طَلْـقُ اليَـدَيْنِ بِفِعْـلِ الخَـيْرِ ذُو فَجَـرٍ ... ضَـخْمُ الدَّسِـيعةِ في الـلَّأْواءِ صَـبَّارُ

١٣-مِثْـلُ الرُّدَيْنِـيِّ، لَـمْ تَنْفَـدْ شَـبِيبَتُهُ ... كأَنَّـهُ تَحْـتَ طَـيِّ الـبُرْدِ أُسْـوارُ

١٤-لِيَبْكِـهِ مُقْـتِرٌ أَفْنَـى حَلُوبَتَـهُ ... دَهْـرٌ وحالَفَـهُ بُـؤْسٌ وإِقْتـارُ

١٥-ورُفْقَـةٌ حـارَ هـادِيهِمْ بِمَهْلَكَـةٍ ... كـأَنَّ ظُلْمَتَهَـا في الطُّخْـيَةِ القَـارُ

١٦-لَـمْ تَـرَهُ جـارَةٌ يَـمْشي بِسـاحَتِها ... لِرِيـبَةٍ حِـينَ يُخْـلِي بَيْتَـهُ الْـجَارُ

الألفاظ الغريبة:

١- العُوَّار: أشدُّ الرّمَدِ وأَغْلَبُهُ.

٣- صُروف الدَّهْرِ: حِدْثانُهُ.

٤- تَعْني بالـماءِ: الـموتَ.

٥- السَّبَنْتَى: الْـجَرِيءُ الصَّدْرِ، وهو من صفاتِ النَّمِر.

٦- العَبْل: الـمُمْتَلئ. والبَوادِرُ: ما يَعْجَلُ بِهِ ويَبْدُرُ منه. والأقران: جَمْعُ القِرْن، وهُوَ الـمُماثِلُ لكَ في الشّدّةِ والبأْس. والهصّار: الَّذي يَقْهَرُ عدوَّه.

٧- العَجُول: الثَّكْلَى. والبَوُّ: ولدُ النّاقةِ يُنْحَرُ ويُحْشَى تِبْنًا ويُقَرَّبُ لِلنّاقةِ فتَرْأَمُهُ لِتَدِرّ.

٨- تَرتَعُ: تَرْعى. وادّكرَت: تذكَّرَتْ.

٩- أَوْجَدُ: أشدُّ وَجْدًا، و(الوَجْدُ) مِنْ معانيهِ: شدّةُ الحُزْن؛ ويُروَى: بأَوْجَعَ.

١١- تأتمّ: تقتدي. والعَلَمُ: الْـجَبَلُ.

١٢- ذو فَجَرٍ: صُحِّفَ في (التعازي والـمراثي) إلى (ذو فَخَرٍ)، والصَّواب (ذو فَجَرٍ) أي: ذو عطاءٍ وكَرَمٍ وجُودٍ ومعروف؛

من التّفَجُّر في الخير، وهو الانبعاثُ فيه؛ ومثلُه قول مطرودٍ الخزاعيّ:

يبكينَ شَخصًا طويلَ الباعِ ذا فَجَرٍ آبـي الـهَضِيـمَةِ فـرّاجَ الْـجَلِيـلاتِ

وضخم الدَّسيعة: كبيرُ الْـجَفْنَةِ، وهي القَصْعَة، كِنايةٌ عنِ الكَرَم. واللّأواء: الشّدّة.

١٣- الرُّدَيْنِيّ: الرُّمْح، منسوبٌ إلى امرأةٍ اسمُها (رُدَيْنَة) كانت تُقَوِّمُ الرّماحَ.

١٤- الـمُقْتِر: الفقير. والحَلوبَةُ: الدّابَّةُ ذاتُ الحليب.

١٥- الـمَهْلَكَةُ: الأرض الّتي يَهْلِكُ مَنْ يَضِلُّ فيها. والطُّخْيَة: الغَيْمُ الرَّقيقُ الَّذي يُوارِي النُّجومَ فيتَحَيَّرُ الهادي، واللَّيْلَةُ الـمُظْلِمَة.

الـمثالُ الثّاني:

لِجَليلةَ بنت مُرَّةَ أو أُخْتِها ماويَّةَ بنت مُرَّة في رثاء زوجِها، وكان كُلَيْب تزوّجَهما؛ قال الـمبرّد: «فقالت ماويَّةُ بنتُ مرّة امرأةُ كُلَيْب، تشتكي

ما بها مِن قتلِ أخيها زوجَها، وهي قصيدةٌ محيطةٌ بالمعنى المقصود، جيدةُ الكلامِ بوَفْرَةِ التّشَكِّي»:

١-يا بْنَةَ الأَقْوامِ إِنْ شِئْتِ فَلا ... تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلي

٢-فَإِذا أَنْتِ تَبَيَّنْتِ الّتِي ... عِنْدَها اللَّوْمُ فلُومِي وَاعْذِلِي

٣-إِنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى ... شَفَقٍ مِنْها عَلَيْهِ فَافْعَلي

٤-قَتْلُ جَسّاسٍ -عَلى وَجْدِي بِهِ- ... قاطِعٌ ظَهْرِي ومُفْنٍ أَجَلي

٥-لَوْ بِعَيْنِي فُدِيَتْ عَيْنٌ سِوَى ... أُخْتِها فَانْفَقَأَتْ لَمْ أَحْفِلِ

٦-تَحْمِلُ العَيْنُ قَذَى العَيْنِ كَما ... تَحْمِلُ الأُمُّ قَذَى مَا تَفْتَلِي

٧-يا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ ... سَقْفَ بَيْتَيَّ جَميعًا مِنْ عَلِ

٨-هَدَمْ البَيْتَ الَّذي اسْتَحْدَثْتُهُ ... وَبَدَا في هَدْمِ بَيْتِي الأَوَّلِ

٩-ورَماني قَتْلُهُ مِنْ كَثَبٍ ... رِمْيَةَ المُصْمِي بِهِ المُسْتَأْصِلِ

١٠-يا نِسائِي دُونَكُنَّ اليَوْمَ قَدْ ... خَصَّني الدَّهْرُ بِرُزْءٍ مُعْضِلِ

١١-خَصَّنِي قَتْلُ كُلَيْبٍ بِلَظًى ... مِنْ وَرائِي وَلَظًى مُسْتَقْبِلِي

١٢-لَيْسَ مَنْ يَبْكِي لِيَوْمَيْنِ كَمَنْ ... إِنَّما يَبْكِي لِيَوْمٍ يَنْجَلِي

١٣-دَرَكُ الثَّائِرِ شَافِيهِ وَفِي ... دَرَكِي ثَأْرِيَ ثُكْلُ المُثْكِلِ

١٤-لَيْتَهُ كانَ دَمِي فاحْتَلَبُوا ... دَرَكًا مِنْهُ دَمًا مِنْ أَكْحَلِي

١٥-جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسّاسٍ فَيا ... حَسْرَتا عَمّا انْجَلَتْ أَوْ تَنْجَلِي

١٦ -إِنَّـــــنِي قاتِلَـــــةٌ مَقْتُـــــولَةٌ وَلَـعَـــلَّ اللهَ أَنْ يَـــرْتَـــاحَ لِـــي

الألفاظ الغريبة:

٤- وَجَدَ بِهِ، وَجْدًا: أحبّه.

٥- لم أَحْفِل: لم أُبالِ.

٦- القذى: ما يخرج من النّاقة والشّاة بعد الولادة؛ وقذى العَيْن: ما يقعُ فيها فيؤذيها. وما تَفْتَلي: ما تَفْطِمُ، تعني الولدَ.

٧- قوّضَه: هدَمَه.

٩- من كَثَب: مِنْ قُرْبٍ وتَمَكُّنٍ. والـمُصمِي: الصائد الَّذي يصيب الصَّيْدَ فيقتُلُه مكانَه. والهاء في (به) عائدٌ على (قَتْله)؛ جعلت قتلَ زَوْجِها كالسَّهمِ الَّذي يصيب الرَّمِيّةَ فيقتُلها مكانَها.

١٠- قولها: (دونكنَّ) متعلِّقٌ بالفعل (خصَّني). والرُّزْءُ: الـمُصيبة. والـمُعْضِل: الشّديد الـمُستَغلِق.

١١- اللَّظى: النّار، أو لَهَبُها الخالص.

١٢- قولها: (يبكي ليومَيْنِ) لا تَعْني يومَيْنِ اثْنَيْنِ، بل يومًا بعدَ يومٍ، كقولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كَرَّةً بعدَ كَرَّةٍ. وتَنْجَلِي: تنكشف.

١٣- الدَّرَك: اللَّحاق، أي لحاقه بثأره. والثُّكْلُ: فقدان الحبيب والولَد. وأثْكَلَها ولدَها: أفْقَدَها إيّاه، فهو مُثْكِلٌ.

١٤- الهاء في قولها: (لَيْتَهُ) عائدٌ على (دَرَك الثّائر) في البيت السّابق. واحتَلَبَ الضَّرْع: استخرج ما فيه من اللَّبَن؛ واستعارته للدَّمِ يُستَخْرَج من الجسم. والأَكْحَل: عِرْقٌ في وَسَطِ الذِّراع.

١٥- جَلَّ: عَظُم. والفاعل في قولها (انجَلَتْ) مستَتِرٌ عائدٌ على (المصيبة) أو ما في معناها، وإن لم يسبق لها ذِكْر، فإنّ السِّياقَ والمعنى دالّان عليها.

١٦- لعلّ اللهَ أنْ يرتاحَ لي: أنْ يُنْقِذَني من البليّة؛ والرَّوحُ: الاستراحة من غمّ القلب.

المثالُ الثّالث:

لأَوسِ بن حَجَرٍ التَّمِيميّ في رثاء سيّدٍ هو فَضَالَةُ بن كَلَدَةَ الأسديّ:

١- أَيَّـــتُها النَّفْـــسُ أَجْمِـلي جَـــزَعَا إنَّ الَّـــذي تَحْـــذَرِينَ قَـــدْ وَقَعَـــا

٢- إنَّ الَّـــذي جَمَّـــعَ السَّـــماحَةَ والنْـــ ـــنَجْدَةَ والـــحَزْمَ والقُـــوى جُمَعَـــا

٣- الأَلْـــمَعِيَّ الَّـــذي يَـــظُنُّ لَـــكَ الظْـ ـــظَنَّ كـــأَنْ قَـــدْ رأى وقَـــدْ سَـــمِعَا

٤- والـــمُخْلِفَ الـــمُتْلِفَ الـــمُـــرَزَّأَ لَمْ يُمْـــتَعْ بِضَـــعْفٍ ولَمْ يَمُـــتْ طَبَعَـــا

٥- والحـافِظَ النَّـاسَ في الْـجُدُوبِ إذا لَـــمْ يُـــرْسِلُوا تَحْـــتَ عائِـذٍ رُبَعَـــا

٦- وعَـــزَّتِ الشَّـــمْأَلُ الرِّيـــاحَ وقَـــدْ أَمْســـى ضَجِـــيعُ الفَتـــاةِ مُلْتَـــفِعَا

٧- وشُـــبِّهَ الـــهَيْدَبُ العَبَـــامُ مِـــنَ الْـ أَقْـــوامِ سَـــقْبًا مُجَلَّـــلًا فَرَعَـــا

٨- وكانَـــتِ الكاعِـــبُ الـــمُمَنَّعَةُ الْـ ـحَسْـــناءُ في زادِ أَهْلِهـــا سَـــبُعَا

٩- أَوْدَى فَـــلا تَنْفَـــعُ الإِشـــاحَةُ فِي شَيْءٍ لِـــمَنْ قَـــدْ يُحـــاوِلُ البِـــدَعَا

١٠- لِيَبْكِكَ الشَّرْبُ والـمُـدامَةُ والْـ ـفِتْيَـــانُ طُـــرًّا وطـــامِعٌ طَمِعَـــا

١١- وذاتُ هِـــدْمٍ بَـــالٍ نَواشِرُهَـــا تُصْـــمِتُ بالـمَـــاءِ تَـــوْلَبًا جَـــدِعَا

١٢- والـحَيُّ إِذْ حاذَرُوا الصَّباحَ بِأَقْـ ـــوامٍ وجاشَـــتْ نُفُوسُـــهُمْ جَزَعَـــا

الألفاظ الغريبة:

١- الجزَع: نَقيضُ الصَّبر، وأَشدُّ الحُزن الَّذي يَقْطَعُ الإنسان عمّا هو بِصَدَدِه من العمل. و(أَجْمِلي جَزَعًا) أظْهِري الجَميلَ في جَزَعِك. وقال المبرّد في تعليقه على القصيدة: «**تقول العرب: الحذر أشدُّ مِن الوَقيعة. وإنّما حَقُّ الشّيء المُتَخَوَّفِ أن يكون صاحبه مرتاعًا حَذَرَ وقوعِه، فإذا وقع البأسُ ارتفع ذلك الحذرُ**».

٣- الأَلْمَعِيّ: شديد الذّكاء الَّذي إذا لَمَعَ له أوَّلُ الأمْرِ عَرَفَ آخِرَه.

٤- قال المُبَرِّد: «**يقول: يُتْلِفُ جُودًا وكرَمًا، ويُخْلِفُ نَجْدَةً واكتسابًا، وقوله: (لم يُمْتَعْ بِضَعْفٍ) أي لم يُقْرَنْ به؛ تقول: (أَمْتَعَ اللهُ بفلانٍ) أي أبقاهُ اللهُ حتّى يتمتّع به أحبّاؤُه ...، وقولُه: (ولم يَمُتْ طَبَعًا) يُقال: طَبِعَ يَطْبَعُ طَبَعًا إذا غلَبَ عليه الحِرْصُ حتّى يُغَطِّيَ على قلبِه؛ ويُقال: طَبِعَ السَّيْفُ إذا رَكِبَهُ الصَّدَأُ حتّى يُغَطِّيَ على صميمِ الحديدة**». المُرَزَّأ: الَّذي يُرْزَأُ بمالِهِ كثيرًا، لكَثْرةِ ما يُسأَلُ فيُعطي.

٥- قال المُبَرِّد: «**وقوله: (والحافظ النّاسَ في تَحُوطَ) يُقالُ للسَّنَةِ الجَدْبَةِ: تَحُوطُ وقَحُوطُ، بالتّاء والقاف جميعًا. وقولُه: (إذا لم**

يُرسِلُوا خَلْفَ عائذٍ رُبَعَا) العائذ: الَّتي معَها ولَدُها، فإذا كانتِ السَّنةُ الجَدْبَةُ نَحَرُوا الفِصالَ لِئَلَّا تُضِرَّ بالأمَّهات». والرُّبَع: الَّذي يُولَدُ في الرّبيع.

٦- قال المُبَرِّد: «وقولُه: (وعزَّتِ الشَّمأَلُ الرِّياحَ) يقولُ: غلبَتِ الرِّياحَ، وتلكَ عَلامةُ الجَدْبِ والقَحْطِ؛ لأنَّ الجَنوبَ هيَ الَّتي تأتي بالنَّدى والمطَرِ؛ ويُقال: عَزَّ فلانٌ فلانًا إذا قهَرَهُ... والكَميعُ: الضَّجِيعُ... والمُلْتَفِع: المُلْتَحِف، فهُوَ مُنْقَبِضٌ عنها مشغولٌ بِما يُلاقِي مِنَ القَرِّ».

٧- قال المُبَرِّد: «وقوله: (وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبامُ) فالهَيْدَبُ: المُسْتَرْخِي، والعَبام: الثَّقيلُ الَّذي لا يكادُ يَنْبَعِث؛ فشُبِّهَ في انقباضِه بالسَّقْبِ، وهُو ولَدُ النّاقةِ إذا كانَ ذَكَرًا، وإن كانَ أُنْثَى فحائِلٌ. (مُلَبَّسًا فَرَعَا) [وهي رِوايةُ المبرّد، بدلًا من (مُجَلَّلًا فَرَعا)] أَيْ قد جُعِلَ عليهِ جِلْدُ الفَرَعِ، وهُو فَصِيلٌ كانوا يتقرَّبُون بهِ في الجاهليّةِ، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: (لا فَرَعَ) فأبطلَهُ الإسلام».

٨- قال المُبَرِّد: «**وقوله: (وكانتِ الكاعِبُ المُمَنَّعةُ الحسناءُ) الكاعبُ: الّتي كَعَبَ ثدياها؛ قال اللهُ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾. والممنَّعة: المحفوظةُ المخبَّأة، كانت كالسَّبُعِ في زادِ أهلِها، وإنّما مِنْ شأْنِها أنْ تُتَرَّفَ وتُنَعَّمَ إذا كانت في هذهِ الصِّفة**»؛ أي: صارت تأكلُ أيَّ شيءٍ بعدما كانت تختارُ أطايب الطعام.

٩-أَوْدى: هَلَك. **والإشاحة**: الحَذَر؛ وقال الزَّبيديّ في (تاج العروس): «**والإِشاحَةُ الحَذَرُ والخَوْفُ لِمَن حاولَ أَن يَدْفَع الموتَ، ومُحاوَلَتُه دَفْعَه بدْعَةٌ**».

١١-قال المُبَرِّد: «**وقولُه: (وذاتُ هِدْمٍ) فالأَهْدامُ: خُلْقانُ الثِّيابِ؛ فيَصِفُ الفقيرةَ وأَنَّه كانَ لَها مَلْجًا. وقوله: (عارٍ نَواشِرُها) مِنَ الضُّرِّ والجوعِ والبؤس، والنَّواشِرُ: عروقُ الذِّراع، كما قال زهير:**

ودارٌ لها بالرّقمتَيْنِ كأنّها رواجِعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

وقولُه: (تُصْمِتُ بالماءِ) أي تُسَكِّنُ طفلَها بالماء، وتسكّنُه إِذْ لم يَكُن له ثُفْلٌ [الثُّفل: ما لا يُشْرَب، كالحَبِّ والدّقيق والتَّمر]. **والجَدِعُ: السَّيِّئُ الغِذاء...**». والتَّوْلَبُ: الصَّغير؛ وقيل: هو صغير الحمار الوحشيّ، فاستعارَهُ؛ وقال الجرجانيّ في (أسرار البلاغة):

«**فأجرى (التَّوْلَبَ) على ولدِ المرأةِ، وهوَ لولدِ الحِمار في الأصل، وذلك لأنّه يصِفُ حالَ ضُرٍّ وبُؤس، ويَذكُرُ امرأةً بائسةً فقيرةً، والعادةُ في مثلِ ذلكَ الصِّفةُ بأوْصافِ البَهائم، لِيكونَ أبلغَ في سوءِ الحالِ وشدّةِ الاختلال**».

خامِسًا: الـمعاني العامّة في الرثاء:

تَشِيعُ في قصائدِ الرّثاءِ ومقَّطعاتِه معانٍ كثيرةٌ غايتُها تصويرُ الفَجِيعةِ وأثرِها في نَفْسِ الشّاعر، وفي نَفْس غيرِه أحيانًا، وما آلَتْ إليه حالُ الشّاعر والنّاس مِن بَعْدِه، وتصويرُ الـمَرْثِيّ وما كان يحملُه مِن صفاتٍ ومآثرَ ومناقب، ويُرافِقُ ذلكَ معانٍ أُخرى متعلِّقةٌ بهذين الجانبين؛ وفي الإمكان ردُّ ذلك كلِّه إلى مجموعةٍ من الـمعاني، لعلَّ أبرزَها:

١- وصفُ حُزْنِ الرّاثي والدَّعوةُ للبكاء على المَرْثِيّ:

يَكْثُرُ في مثل هذه الحالِ دَعْوَةُ العَيْنِ للبكاء، أو ذِكْرُ كَثْرَةِ دموعها وغزارتها، ولا سيّما عند النِّساء اللَّواتي يَكْثُرُ في شِعرِهِنّ التَّفَجُّع الحارّ، فإنّ النّساء - كما يقول ابنُ رَشيق- «**أَشْجَى النّاسِ قلوبًا عند المصيبة، وأشدُّهم**

جَزَعًا على هالِك، لِمَا ركّبَ اللهُ - عزّ وجلّ- في طبعهنّ مِنَ الخَوَرِ وضَعْفِ العَزيمة»؛ ومِنْ ذلكَ قول أمّ عمرٍو أختِ ربيعةَ بنِ مُكَدِّمٍ الكِنانيّ:

ما بالُ عَيْنِكِ مِنْها الدَّمْعُ مُهْراقُ سَحًّا، فلا عازِبٌ عَنْها وَلَا راقِ
أَبْكِي على هالِكٍ أَوْدَى فأَوْرَثَني بَعْدَ التَّفَرُّقِ حُزْنًا حَرُّهُ باقِ

ثُمَّ تقول:

فسَوْفَ أَبْكيكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقَةٌ وما سَرَيتُ معَ السّاري على ساقِ
أَبْكِي لِذُكْرَتِهِ عَبْرَى مُفَجَّعَةً ما إِنْ يَجِفُّ لَها مِنْ ذُكْرَةٍ ماقِي

وقولُ الخنساء:

أَلَا ما لِعَيْنِكِ أَمْ ما لَهَا لَقَدْ أَخْضَلَ الدَّمْعُ سِرْبالَها

وقولُها:

أَمِنْ حَدَثِ الأيّامِ عَيْنُكِ تَهْمُلُ وتَبكي على صَخْرٍ، وفي الدَّهْرِ مذْهَلُ

ومن رائعِ شعرِهنَّ الَّذي يصوّر بكاءَ المرأة وأثرَ فَقْدِها المَرْثِيَّ في حياتها ونَفْسِها ما قالته فاطمةُ بنتُ الأَحْجَمِ الخُزاعيّةُ تَرْثي زَوْجَها:

يـا عَـيْنُ جُـودِي عِنْدَ كُـلِّ صَـباحِ جُــودِي بأَرْبَعَــةٍ عَــلى (الْــجَرَّاحِ)
قـد كُنْتَ لِـي جَـبَلًا أَلُـوذُ بِظِلِّـهِ فتَرَكْتَنــي أَمْــشي بِــأَجْرَدَ ضَــاحِ
قد كُنْتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ما عِشْــتَ لي أَمْشي ـ البِرَازَ، و كُنْتَ أَنْتَ جَناحي
فاليَــوْمَ أَخْضَـعُ لِلـذَّليلِ، وأَتَّقِـي مِــنْهُ، وأَدْفَــعُ ظالِــمِي بِالــرَّاحِ
وإذا دَعَــتْ قُمْــرِيَّةٌ شَــجَنًا لَــهَا يَوْمًــا عــلى فَــنَنٍ دَعَــوْتُ صَــبَاحي
وأَغُضُّ مِـنْ بَـصَري، وأَعْلَـمُ أَنَّهُ قَــدْ بَــانَ حَــدُّ فَــوارِسي ورِمــاحي

وفي ذلك تعبيرٌ مُؤثِّرٌ عن قلقِ هذه المرأةِ وخوفِها وشعورِها بالفراغِ القاتلِ الَّذي تركَهُ زوجُها بعد موتِه، فتغيّرَتْ حياتُها من حالٍ إلى حالٍ؛ وذكَرَ القاليُّ أنَّ ابنَ دُرَيْدٍ أَخْبَرَهُ أنَّ أُمَّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها تَـمَثَّلَتْ بهذهِ الأبياتِ بعدَ وفاةِ النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

ولكنَّ الرجالَ -وإنْ كانَ الغالبَ عليهم التَّماسُكُ وإيثارُ الظُّهورِ بالحَزْمِ والبُعْدِ عنِ الاسْتِكانَةِ- لا يخلو شِعْرُهم أحيانًا مِنَ الجَزَعِ إذا كانت صِلَةُ الشّاعرِ شديدةً بالمَرْثِيّ، أو كان المرثيُّ ذا فضلٍ كبيرٍ عليه وعلى مَنْ حَوْلَه؛ وذلك كقولِ مَطْرُودِ بنِ كَعْبٍ الخُزاعيِّ يَرْثي عبدَ المُطَّلب وبَني

عبدِ مَنافٍ جميعًا، وكان مَطْرودٌ قد لَـجَأَ إلى عبدِ الـمُطّلِبِ فحَماهُ وأحْسَنَ إليه:

يا عَيْنُ جُودي وأَذْرِي الـدَّمْعَ واحْـتَفِلي وابْكِي حَبِيسَـةَ نَفْـسِي في الـمُلِمَّاتِ
وابْكِي عـلى كُـلِّ فَيَّاضٍ أَخِـي حَسَـبٍ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ وَهّابِ الْـجَزِيلاتِ

٢- تصويرُ البَواكِي في المَآتِم:

وكأنّ الشّاعرَ يستعينُ ببكاءِ النِّساءِ في رثاءِ صاحبِهِ بعدَ أنْ دعا عينَه للبكاء عليه؛ وبعض الشُّعراء لا يُظْهِرُ بكاءَه، ولكنَّه يعوّضُ ذلك بوَصْفِ مَآتِمِ النِّساءِ وقد تجمّعْنَ للنُّواحِ، يَبْكِينَ وهنّ حاسراتٌ، ويَفْعَلْنَ ما كانت تفعلُه النِّساءُ في الجاهليَّة ممّا نهى الإسلامُ عنه، مِن لَطْمِ الوُجوهِ والصُّدورِ وخَمْشِها وضَرْبِها بالنّعالِ والجلودِ ونَتْفِ الشَّعَرِ أو حَلْقِهِ ونحوِ ذلك؛ ومِن هذا قولُ الرَّبيعِ بنِ زيادٍ العَبْسِيّ يَرثي مالكَ بنَ زُهَيْرٍ العبسيّ:

مَـنْ كـانَ مَـسْرُورًا بِمَقْتَـلِ مَالِـكٍ فَلْيَـأْتِ سَـاحَتَنا بِوَجْـهِ نَهـارِ
يَجِـدِ النِّسـاءَ حَـواسِرًا يَنْدُبْـنَهُ يَلْطُمْـنَ أَوْجُهَهُـنَّ بالأَسْـحارِ
قَـدْ كُـنَّ يَخْبَـأْنَ الوُجـوهَ تَسَـتُّرًا فـاليَوْمَ قَـدْ أُبْـرِزْنَ لِلنُّظَّـارِ
يَـضْرِبْنَ حُـرَّ وُجـوهِهِنَّ عَـلى فتًى عَـفِّ الشَّـمائِلِ طَيِّـبِ الأَخْبـارِ

٣- استعظامُ الفَجِيعَةِ بالميتِ وإِكْبارُ شأنِهِ والتَّعَجُّبُ مِن ذَهابِ مِثْلِه:

يَظهرُ ذلك حينَ يتعجّبُ الشَّاعِرُ مِن أنَّ مَظاهِرَ الطّبيعة لا تزالُ على حالِها بعدَ موتِ المَرْثِيّ؛ وعَدَّ المبرِّدُ مِنْ عجيبِ ما قيلَ في ذلك قول النّابغةِ في حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ الفَزارِيِّ الذُّبيانيّ[1]:

يَقُولُونَ: حِصْنٌ، ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وكيفَ بِحِصْنٍ، والْجِبالُ جُنُوحُ

ولَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبورُ، ولَمْ تَزُلْ ... نُجومُ السَّماءِ، والأَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ، ثُمَّ جاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ الحَيِّ وَهْوَ يَنُوحُ

ومِن ذلك قولُ أَوْسِ بنِ حَجَرٍ:

---

(١) قال صاحبُ (الحُلَل في شرح أبيات الجُمَل) وقد نَسَبَ البيتَين الأَوَّلَيْنِ لِزُهَيْر: «أَرادَ أَنَّهم يقولون: (ماتَ حِصْنٌ)، ثمَّ يَسْتَعْظِمُون أن يَنْطِقُوا بذلك، ويقولون: كيفَ يَجُوزُ أن يَمُوتَ والجِبالُ لَمْ تُنْسَفْ، والنّجوم لم تنكَدِر، والقبورُ لم تُخْرِجْ موتاها، وجِرْمُ العالَمِ صَحيحٌ لَمْ يَحْدُثْ فيهِ حادِث؟». وقولُه: (والجبال جُنُوح) أي راسِخَةٌ مُستَقِرَّة. والنَّعِيُّ: الَّذي يأتي بخَبَرِ الموت. والنَّديُّ: مَجْلِسُ القَوْم الَّذي يجتمعون فيه، والقَومُ المُجتَمِعُونَ أيضًا، يُطْلَق على المكان وعلى أهلِه؛ وقد نَدا القَومُ وانتَدَوْا وتَنادَوْا إذا اجتَمَعُوا.

أَلَمْ تُكْسَفِ الشَّمْسُ والبَدْرُ والْـ ـكَواكِبُ لِلْجَبَلِ الوَاجِبِ

لِفَقْدِ فَضَالَةَ لا تَسْتَوِي الْـ ـفُقُودُ ولا خَلَّةُ الذَّاهِبِ

فهو يَعْجَبُ مِن ألّا تُكْسَفَ الشَّمسُ ولا يُخْسَفَ البَدْرُ ولا تَغِيبَ الكواكبُ لِسُقوطِ هذا الرَّجُلِ الشّبيهِ بالْـجَبَلِ في عِظَمِه، وذلك على اعتقادِ الْـجاهليّين بأنّ الشّمسَ والقمرَ لا يُكْسَفانِ إلّا لِـمَوتِ عظيمٍ، فلا يَسْتَوِي فَقْدُ غَيْرِه وفَقْدُه، وهو الَّذي تَرَكَ خَلَّةً لا يَسُدُّها سِوَاه؛ ثُمَّ راحَ أَوْسٌ يُعَدِّدُ مناقبَهُ الكثيرة.

٤- تَعْدادُ مَناقِبِ الميتِ ومحاسِنِه:

لا يَخْلُو من هذا مُعْظَمُ رثائهم، إذ **يُعَدِّدونَ ما كان يتّصفُ به المرثيُّ مِن شجاعةٍ ونجدةٍ وحَمِيَّةٍ ومجدٍ وشَرَفٍ وكَرَمٍ وسَخاءٍ وعقْلٍ وعِفَّةٍ ونحوِ ذلك مِن صفاتِ الفتوَّةِ والرُّجولة، ويَنْفُونَ عنه كلَّ صفةٍ تَشِينُهُ، وكأنَّ الرّاثيَ يُصَوِّرُ بذلكَ الرَّجُلَ الكامِلَ المِثالَ**؛ ويأتي ذلك في الغالبِ بَعْدَ البُكاءِ أو الدَّعْوَةِ إلى البُكاءِ أو استعظامِ الـموتِ، حتّى كأنّ الشَّاعِرَ منهم -كما يقولُ الـمبرِّد- يقدِّمُ بذلكَ «اعتذارًا مِنْ إِفْراطِ التَّفَجُّعِ باستحقاقِ الـمَرْثيِّ» لهذا الرّثاءِ والبُكاء؛ ومن ذلك ما جاءَ من أبيات أَوْسٍ بعدَ البَيْتَيْنِ السّابقَيْنِ،

والشّواهدُ على ذلك كثيرةٌ فيما سبقَ من القصائدِ، ولكنَّ أبرَز ما يظهر ذلكَ في رائيّة أَعشى باهلةَ، فقد أكثرَ فيها مِنْ نَفْيِ ما يُسِيْءُ إلى أخيه، ووصَفِهِ بما يَحْسُنُ من الصِّفات، ومثالٌ آخرٌ على ذلكَ ما جاءَ في رثاءِ الخِرْنِق بنتِ هِفّانَ بنِ بَدْرٍ تَرْثي زَوْجَها وولدَها وأَخَوَيْهِ لأَبيه:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبُونَ مَعاقِدَ الأُزْرِ

إِنْ يَشْرَبُوا يَهَبُوا وإِنْ يَذَرُوا ... يَتَواعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الهُجْرِ

قَوْمٌ إذا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ ... لَغَطًا مِنَ التَّأْيِيهِ والزَّجْرِ

والخالِطِينَ نَحِيتَهُمْ بنُضارِهِمْ ... وذَوِي الغِنَى مِنْهُمْ بِذِي الفَقْرِ

هَذا ثَنائي ما بَقِيتُ عَلَيْهِمُ ... فإِذا هَلَكْتُ أَجَنَّنِي قَبْرِي

ولولا البَيْتُ الأوّلُ لَاشْتَبَهَتْ سائِرُ الأَبياتِ بقصائدِ المديح، حتّى يَصِحّ فيها قَوْلُ قُدَامَةَ بنِ جعفرٍ في حديثِه السّابقِ عن الفرْقِ بينَ الرِّثاء والمديح.

٥- الرّغبةُ في تَفْدِيَةِ المَرْثِيّ:

هذا معنًى قليلُ الورود في المراثي الجاهليّة، ومَرَدُّ ذلك إلى أنَّ الشّاعرَ الجاهليَّ واقعيٌّ في مِثْلِ هذه الحال، يعلَمُ أنَّ تَفْدِيَةَ الميتِ لا تُقَدِّمُ

شيئًا ولا تؤخّر، فإنَّ القضاءَ إذَا حُمَّ فإنَّه لا مَردَّ له؛ ولذلك يُعْقِبُ بعضُ مَنْ يُفَدِّي المرثيَّ بالإقرارِ والخضوعِ لهذا القدَرِ المَحْتُوم؛ كقولِ أمِّ عَمْرٍو أُخْتِ رَبيعةَ بنِ مُكَدِّم:

لَوْ كانَ يَرْجِعُ مَيْتًا وَجْدُ ذِي رَحِمٍ ... أَبْقَى أَخِي سالِمًا وَجْدِي وإِشْفاقِي

أَوْ كانَ يُفْدَى لَكانَ الأَهْلُ كُلُّهُمُ ... وما أُثَمِّنُ مِنْ مالٍ لَهُ وَاقِ

لَكِنْ سِهامُ المَنايا مَنْ نُصِبْنَ لَهُ ... لَمْ يُنْجِهِ طِبُّ ذِي طِبٍّ ولا راقِ

ومِمّن فدَّى المَرْثيَّ كَعْبُ بنُ سَعْدٍ الغَنَوِيُّ في قولِه:

فَلَوْ كانَتِ المَوْتَى تُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ ... بِما لَمْ تَكُنْ عَنْهُ النُّفوسُ تَطِيبُ

بِعَيْنَيَّ أَوْ كِلْتا يَدَيَّ، وقِيلَ لِي: ... (هُو الغانِمُ الْجَذْلانُ) حِينَ يَؤُوبُ

فإِنْ تَكُنِ الأيّامُ أَحْسَنَّ مَرَّةً ... إِلَيَّ فقَدْ عادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

ولأنَّ هذه الرَّغبَةَ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ استعمل الشُّعراءُ حرفَ الشرطِ (لَوْ) وهو حرفُ امتناعٍ لِامتناعٍ في تعريفِ النُّحاةِ، ويَحْمِلُ مَعْنَى التَّمَنِّي عندَ أصحابِ المعاني، وفي ذلكَ من الدَّلالةِ على الحَسْرَةِ على الميتِ والانكسارِ والخضوعِ لِقَدَرِ الموْتِ ما لا يَخْفَى.

٦- الدُّعاءُ لِلْميت:

إذا كانت تفديَةُ المرثيِّ رغبةً غَيْرَ ممكنةِ التَّحقيقِ فإنَّ الشّاعِرَ الْجَاهليَّ لَجَأَ إلى شيْءٍ آخَرَ كانَ قادرًا عليه، وهو الدُّعاءُ للميت؛ ويَكْثُرُ في هذه الحال دعاؤُهم بـ(أَلَّا يَبْعَدَ) وبـ(أَلَّا يُبْعِدَه اللهُ) وبأنْ (يُسَلِّمَ) على الميتِ أو على قبرِه، وبأنْ يَجُودَ الغمامُ على قبرِه و يَسْقِيَهُ، وكأنَّما هي رغبةٌ في إحياءِ قبرِه بالنّباتِ إذْ لا أمَلَ في حياةِ مَنْ حَجَبَتْهُ الصَّفائِحُ والتّراب، كما كان الشّاعرُ يَدعُو بالسُّقْيا لِدِيارِ الأحبَّةِ بعد أَنْ يَحْجُبَهُم عنه النَّأْيُ، فالشّاعِرُ في كِلْتا الحالَيْنِ يَشْعُرُ بِحَرَارةِ الفِراقِ وشدّتِه؛ ومن أمثلةِ دعائِهم للميتِ بأَلَّا يَبْعَدَ أو بأَلَّا يُبعِدَه اللهُ قولُ أُمِّ عَمْرٍو أختِ ربيعةَ بنِ مُكَدِّم:

فَاذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ لاقَى الّتي كُلُّ حَيٍّ مِثْلَها لاقِ

وقولُ الخِرْنِقِ:

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذينَ هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الْجُزْرِ

وجَمَعَ حاطِبُ بنُ قيسٍ الأَوْسيّ في رثاءِ عَمْرِو بنِ حُمَمَةَ الدَّوْسِيِّ بينَ السَّلامِ على قَبْرِهِ والدُّعاء له بأن يسقيَهُ القَطْرُ وبألّا يُبْعِدَهُ اللهُ، فقال[1]:

سَلامٌ على القَبْرِ الَّذي ضَمَّ أَعْظُمًا ... تَحُومُ المَعالِي حَوْلَهُ فَتُسَلِّمُ

سَلامٌ علَيْهِ كُلَّما ذَرَّ شارِقٌ ... وما امْتَدَّ قِطْعٌ مِنْ دُجَى اللَّيْلِ مُظْلِمُ

فيا قَبْرَ عَمْرٍو جادَ أَرْضًا تَعَطَّفَتْ ... علَيْكَ مُلِثٌّ دائِمُ القَطْرِ مُرْزِمُ

ثمّ قال:

فَلَوْ وَأَلَتْ مِنْ سَطْوَةِ المَوْتِ مُهْجَةً ... لَكُنْتَ، ولكِنَّ الرَّدَى لا يُثَمْثِمُ

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ حَيًّا ومَيِّتًا ... فقدْ كنْتَ نُورَ الخَطْبِ والخَطْبُ مُظْلِمُ

فالفَقْدُ هُوَ فَقْدُ الإنسانِ للإنسانِ، وما المرورُ بالدِّيارِ أو القبورِ والدُّعاءُ بالسُّقْيا لها إلّا تعلُّقٌ بِمَنْ حِيلَ بينَ الإنسانِ وبَيْنَهُ بالفِرَاقِ والبُعْدِ أو بالموْت؛ ولا نَنْسَيَنْ أَنَّ الشّاعِرَ المُحِبَّ كثيرًا ما كانَ يَبْكي حينَ وقوفِهِ على ديارِ الأحبَّة كما يبكي مَن يقفُ على قبرٍ لِيَرْثِيَ فَقِيدًا.

---

(١) كلّما ذَرَّ شارِق: كلّما طلَعَتِ الشَّمْس، والشّارقُ: الشّمسُ، أَو قَرْنُها. والقِطْعُ: الطّائفة من اللّيْل. والمُلِثُّ: الدّائمُ المُقِيم. ومُرْزِم: مُصَوِّت بالرَّعْد. ولا يُثَمْثِم: لا يُبْطِئ.

ولا يقتصِرُ دعاؤُهم على السُّقيا وحدَها، فإنّ منهم مَنْ يدعو بالبَرَكةِ، ومنهم مَن يدعو بألّا يَزالَ القَبْرُ لَهُ أَرَجٌ مِنَ المِسْكِ والرَّيْحانِ وأن يظلَّ محفوفًا بالظِّلال، وأمثالِ ذلك.

٧- التّعزّي والتأسّي:

يتكرّر في هذا المعنى التّصبُّرُ والتّجلُّدُ الممزوجُ بالألمِ على الفقيدِ الَّذي لا يُنْسى، مع التَّفكُّرِ في مصيرِ كلِّ حيّ، وأنَّ الموتَ وِرْدٌ لا بُدَّ منه، وسبيلٌ لا بدَّ من سلوكِها، مع التّأسِّي بالآخَرِينَ مِمَّنْ أُصِيبوا بأهلِهم؛ وكثيرًا ما يستحضِرُ الرّاثي مُعادِلًا لَهُ مِنَ الحيوان يتأسّى بِهِ أو يشارِكُهُ في حزنِهِ كالحمامِ أو النّاقةِ أو غير ذلك ممَّا يُذَكِّرُ الرّاثي بفقيدِه ويجدِّدُ لَهُ حُزْنَهُ مِنْ جِهَةٍ، ويكونُ لَهُ عِبْرَةً ومُذكِّرًا بأنَّ الموتَ قضاءٌ لا مَوْئِلَ منه من جهةٍ أُخرى.

وتتجاذبُ الرّاثيَ في مثل هذه الحالِ **نَزْعَةٌ عقليّةٌ** تحاولُ انتشالَهُ مِن حَمْأةِ الحُزْنِ واستغراقِهِ فيه، **ونَزْعَةٌ عاطفيّةٌ** تَشدّه إلى تلك الحمأة ليكتويَ بِحَرِّها؛ وقد مرَّ بعضُ ذلكَ التّنازعِ حينَ يدعُو أحدُهم بألّا يَبْعَدَ صاحِبهُ،

ولكنَّه يَعْطِفُ على ذلكَ بأنَّ الحتوفَ مَوَارِدُ لا مَصْرِفَ عنها ولا مَوْئِلَ، وبأنَّها سبيلٌ مَسلوكة، وبأنَّ كلَّ حيٍّ لاقيها.

ومن ذلك قولُ الخنساء:

أَلَا يــا صَــخْرُ لا أَنْســاكَ حَتّــى أُفَــارِقَ مُهْجَتِي ويُشَـقَّ رَمْـسِي

ولَــوْلَا كَــثْرَةُ البــاكِينَ حَــوْلِي عَـلى إِخْـوانِهِمْ لَقَتَلْـتُ نَـفْسِي

ولكــــنْ لا أَزالُ أَرى عَجُــــولًا ونائِحَـةً تَنُـوحُ لِيَــوْمِ نَحْـسِ

هُمَــا كِلْتاهُمــا تَبْكِــي أَخاهــا عَشِــيَّةَ رُزْئِـهِ أَوْ غِــبَّ أَمْـسِ

ومــا يَبْكِـينَ مِثْـلَ أَخِـي ولكِـنْ أُعَــزِّي الــنَّفْسَ عَنْـهُ بالتَّـأَسِّي

فالخنساء تتأسّى بغيرها وإن كانت لا تنسى أخاها.

وفي مثلِ هذهِ الحال يظهر تجلُّدُ الرّجالِ أشدّ مِن النساءِ، ولهذا يبدأُ أوسُ بنُ حَجَرٍ قصيدتَهُ بقوله:

أَيَّتُهــا الــنَّفْسُ أَجْمِـلِي جَزَعَــا إنَّ الَّــذي تَحْــذَرِينَ قَــدْ وَقَعَــا

على أنّهُ ينبغي ألّا يُنْسَى أَثَرُ الصِّلَةِ بين الرّاثي والمرثيّ في مثل هذهِ الحال، فليستِ الخنساءُ الّتي تَرثي أخاها كأوسٍ الَّذي يَرْثِي رجلًا شريفًا

ليسَ من قبيلته؛ ولكنْ لو أخَذْنا مثالًا آخَرَ لوجَدْنَا التجلّد واضحًا عندَ الرَّجُلِ ولو كان الـمرثيُّ أخاه، فهذا عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبَ يقول في رثاءِ أخيهِ (زَنْدٍ):

كَـــمْ مِـــنْ أَخٍ لِي صـــالِحٍ بَوَّأْتُـــهُ بِيَـــدَيَّ لَـــحْدَا
مـــا إِنْ هَلَكْـــتُ لِفَقْـــدِهِ لَـيْسَ البُكـاءُ يَـرُدُّ (زَنْـدَا)
أَلْبَسْـــــــتُهُ أَثْوابَـــــــهُ وخُلِقْتُ يَـوْمَ خُلِقْتُ جَلْـدَا

٨- الحكمة:

يَكْثُرُ بُروزُ الحِكمة في الـمَراثي الطِّوال ولا سِيَّما تلك الّتي قالَها شُعراءُ عُرِفوا بنزعَتِهِمُ العقليّة أو بتأَلُّهِهِمْ، مثلُ لَبيدِ بنِ رَبيعةَ، ولكنْ يَنْدُرُ أنْ تَخْلُوَ معاني الـمراثي مِنْ أَثَرِ الحكمةِ ولو بِأنْ يُلِمَّ بها الرّاثي إلمامًا، وقد مرَّتْ أمثلةٌ على ذلك فيما سبق؛ غيرَ أنَّ عُمْقَ الحكمة النابعةِ مِنَ التفكُّر في الحياة والـموت والأيّام وصروفِها تَظْهَرُ أكثرَ ما تظهرُ في شعرِ لبيدٍ وأمثالِه، وفي أشعارِ مَنْ رَثَوْا أنفسَهُم؛ كقول يزيدَ بنِ خَذّاقٍ العبديِّ:

هَلْ لِلْفَتى مِنْ بَنَـاتِ الـدَّهْرِ مِـنْ واقِ أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمامِ المَـوْتِ مِـنْ راقِ

وهُوَ سؤال استنكاريٌّ معناهُ النّفْيُ؛ ثمّ قال بعدَما صوَّرَ حالَهُ وقد هَيَّأَهُ النّاسُ وحملُوه إلى قبرِه:

هَـوِّنْ عَلَيْـكَ ولا تُولَـعْ بإِشْـفَاقِ فَـإِنَّما مالُنَـا لِلْـوارِثِ البـاقِي

وأمّا لَبِيدٌ فقد ظهرتِ الحكمةُ كثيفةً في مطالع مراثيه وغيرِها، كقصيدتِه في رثاء النُّعمانِ بنِ الـمُنْذِرِ الّتي يقول في أوّلها:

أَلا تَسْـأَلانِ المَـرْءَ مـا ذَا يُحـاوِلُ أَنَحْبٌ فَـيُقْضَى أَمْ ضَـلالٌ وباطِـلُ

حَبائِلُـــهُ مَبْثُوثَـــةٌ بِسَـــبِيلِهِ ويَفْـــنَى إذا مـا أَخْطَأَتْـهُ الحَبائِـلُ

إِذا المَـرْءُ أَسْرَى لَيْلَـةً ظَـنَّ أَنَّـهُ قَضَى عَمَلًا، والمَرْءُ ما عاشَ عامِلُ

فَقُـولا لَـهُ إِنْ كـانَ يَقْسِـمُ أَمْـرَهُ: أَلَمَّا يَعِظْكَ الدَّهْـرُ؟ أُمُّـكَ هابِـلُ!

ويسترسِلُ في مثلِ هذه الحكمةِ إلى أحَدَ عَشَرَ بَيْتًا مِن القصيدة، ثُمَّ يَرْثي النُّعمانَ، ولكنَّه يعودُ بعدَ ذلك ليستنبِطَ العِبْرَةَ مِن مَقْتَلِه ومِنْ تَذَكُّرِ مَنْ مَضَى مِنَ الـملوكِ إلى آخِرِ القَصيدة.

٩- التّحريضُ على الثّأر، أو التّهديدُ والوَعيدُ للأعداء، أو التّشَفّي بأخذ الثّأر:

هذا خاصٌّ ببعضِ القصائدِ الّتي يُرثَى فيها قَتِيلٌ سقطَ في معركة؛ كقول دُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ يُهَدِّدُ قَتَلَةَ أخيه في آخرها:

فإنْ تُمْكِنِ الأيّامُ والدَّهرُ تَعْلَمُوا بَنِي قارِبٍ أَنَّا غِضابٌ لِـ(مَعْبَدِ)

ولم يتجاوزْ هذا البَيْتَ؛ غيرَ أنَّ بعضَ المقاطع مِن قصائِدِ الرّثاء تتجاوزُ ذلك حتّى تتحوَّلَ تلك المقاطعُ إلى بابٍ مِن أبوابِ الفَخْرِ أو الهجاءِ، فمِثْلُ هذا أَوْلَى أنْ يُدْرَجَ في بابِهِ ويُدْرَسَ مَعَ أشباهِهِ، ويَبْقَى سائرُ القصيدةِ المتعلّقُ بالرّثاءِ في بابِهِ؛ فقولُ مُهَلْهِلٍ في قصيدةٍ رثى بها أخاه كُلَيْبًا[1]:

فَلَوْ نُبِشَ المَقابِرَ عَنْ كُلَيْبٍ فَيُخْبَرَ بـ(الذَّنائِبِ) أَيُّ زِيرِ
بِيَوْمِ الشَّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عَيْنًا وكَيْفَ لِقاءُ مَنْ تَحْتَ القُبورِ
وإِنِّي قَد تَرَكْتُ بِـ(وارِداتٍ) بُجَيْرًا في دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ

(١) الذَّنائب: مَوْضِعٌ بنَجْد. والشَّعْثَمانِ: رجُلان من بَكْرِ بنِ وائل، وهما معاوية وصُرَيْم ابنا الشَّعثَمِ بنِ معاوية، وقيل: هما شَعْثَم وعَبد شَمْس ابنا معاوية بن عامر بن ذُهْل، وقيل غَيْرُ ذلك. ووَارِدات: المَوضِع الَّذي قَتَل فيه مُهلهلٌ بُجَيْرًا. ويَنُوءُ: يَنْهَض. ويَخْلِجُه: يَجْذِبُه. وخِدَبٌّ: ضَخْمٌ.

يَنُـــوءُ بِصَـــدْرِهِ والـــرُّمْحُ فِيـــهِ ويَخْلِجُـــهُ خِـــدَبٌّ كَـــالبَعِيرِ

هَتَكْـــتُ بِـــهِ بُيُـــوتَ بَنِـــي عُبَـــادٍ وبَعْـــضُ القَتْـــلِ أَشْـــفَى لِلصُّـــدُورِ

إلى آخِرِ القصيدةِ؛ ومثلُ هذا الشِّعرِ مِنَ الأَوْلى أَنْ يُعَدَّ مِنَ الفَخْرِ أو الحماسةِ في سياقِ قصيدةٍ واحدةٍ جَمَعَتْ معانيَ الفخرِ والحماسةِ والرّثاء، وربّما جَمَعَت معها الهجاءَ أحيانًا، بِحَسَبِ العواطفِ الّتي تنازَعَتِ الشّاعرَ حين أنشدَ قصيدتَه، لا أَنْ تُعَدَّ جميعًا مِنْ بابِ الرّثاء.

سادِسًا: ظواهرُ فنّيّةٌ وأسلوبيّة في الـمراثي الجاهليّة:

في ختام الحديث عن الرّثاء يحسُنُ التّنبيه على بعض الظّواهر الشّكليّة والـمعنويّة والأسلوبيّة في مراثي الجاهليّة، وهي:

١- **يُلْحَظُ أنّ هناك صلةً واضحةً بين الرّثاء وأغراضٍ شعريّةٍ أخرى**، ولا سِيَّما الفخرِ والحماسة، ثُمّ الهجاء، إذ كثيرًا ما تكون هذه الأغراضُ جَنْبًا إلى جنبٍ في القصيدة الواحدة، ولا يعني ذلك أنّ القصيدةَ تُقْسَمُ أقسامًا مشتّتةً، بل تكون الأغراض متشابكةً متكاملةً يُفْضِي بعضُها إلى بعض، وتتواشجُ حتّى تكونَ قصيدةً واحدةً متلائمةَ الأجزاء تعبّر عن العواطفِ الصّادقة الـمترابطة الّتي تعتلج في نفس الشّاعر.

٢- قِلّة المَراثي الّتي تبدأُ بذكرِ النّساء أو الأطلال أو رحلة الظّعائن، وهي قلّةٌ لا تَصِلُ إلى حَدِّ النُّدرةِ الّتي ذهبَ إليها ابنُ الكَلْبِيِّ، فقد نقل عنه ابنُ رَشِيقٍ أنّه لا يعلَمُ مَرْثِيَةً أوَّلُها نَسِيبٌ إلّا قصيدةَ دُرَيْدِ بنِ الصِّمَّةِ الّتي أَوّلُها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعاقِبَةٍ وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

بَلَى إنّ هنالِكَ قصائدَ أُخرى ابتدأَتْ بذِكْرِ النّساء؛ ومن ذلك قصيدةُ لَبِيدٍ في رثاءِ أخيه الّتي أوّلُها:

طَرِبَ الفُؤادُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَطْرَبِ وَعَناهُ ذِكْرَى خُلَّةٍ لَمْ تَصْقَبِ

وقول سُلْمِيُّ بن غُوَيّةَ الضَّبِّيِّ يَرْثِي قومَه:

أَلَا نَادَتْ أُمامَةُ باحْتِمَالِ لِتَحْزُنَنِي، فَلا بِكِ، ما أُبَالِي

على أنَّ ذِكْرَ النّساءِ لَمْ يَكُنِ الهدفُ منه الغَزَلَ، وإنّما كان في الغالبِ سَبيلًا إلى ذِكْرِ مَن يرثيه الشّاعر، ولهذا تَخْلُو هذه المطالعُ أو تَكادُ مِنْ ذِكْرِ المحاسنِ والأيّام الخوالي والحنين إليها كالَّذي في غير ذلك من القصائد، ويظهَرُ فيها الحديثُ عنِ البَيْنِ والصَّرْمِ واللَّوْمِ ونحوِ ذلك، ويُعَقِّب الشّاعر بعد ذلك بأنَّه غيرُ مبالٍ بذلك، وأنَّ ذِكْرَ المرأةِ ما هو إلّا ضَلالةٌ أو سَفَه،

فإنَّ وَقْعَ الفَجيعةِ والخَطْبِ الشّديدِ أَنْساهُ كُلَّ فَجيعةٍ غيرِها وهوَّنَها عليه، ولهذا لا يجوزُ عَدُّ مثلِ هذهِ المطالعِ مِنَ المطالعِ الغَزَليّة؛ وكذلك القصائدُ الّتي ابتدأَتْ بذكرِ الأطلال أو الظّعائنِ لا تكادُ تختلفُ عن هذه؛ وكأنَّما جاء أولئكَ الشُّعراءُ بذِكْرِ النِّساءِ والدّيار والظُّعن لِجامِعِ (الفِرَاق) بين ذِكْرِها وذِكْرِ المرثي، فكلُّ ذلكَ مَقْرُونٌ بالحزنِ الشّديد، ولكنَّ الفَجيعةَ تكونُ أعظمَ بالفَقيدِ الَّذي لا أمَلَ في لقائه.

٣- ابتداءُ كثيرٍ مِن المَراثي الطِّوالِ بالحِكْمَة: وقد سبقَ الكلامُ على هذا.

٤- نُدْرَةُ رثاءِ الأَطفالِ والنّساء: حتّى يكادُ ذلكَ يكونُ مَعْدُومًا في الشعر الجاهليّ، على خلافِ ما نجده بعد ذلك في الشعر بعد الإسلام؛ ولم أجِدْ بعدَ طُول التّنْقيبِ عمّن رَثى أُمَّه أو أُخْتَه أو ابنتَه أو امرأتَه سِوى قَوْلِ قَيْسِ بنِ مَسعودٍ المُراديِّ يرثي امرأتَه:

سُعَيْدَ قُومِي عَلى سُعْدَى فَبَكِّيها ... فَلَسْتِ مُحْصِيَةً كُلَّ الَّذي فيها

في مَأْتَمٍ كَظِباءِ الرَّوْضِ قَدْ قَرِحَتْ ... مِنَ البُكاءِ عَلى سُعْدَى مَآقيها

وأمّا رثاء الوَلَدِ وقد صار رَجُلًا فليسَ قليلًا.

ولعلَّ نُدْرةَ رِثاء الأطفالِ والنّساءِ لِـمَا ذكره ابن رشيق عن صعوبة رثائهما، فقال: «**ومِن أشدِّ الرِّثاءِ صُعوبةً على الشّاعر أَنْ يَرْثِيَ طِفلًا أو امرأةً، لِضِيقِ الكلامِ عليهما وقلّةِ الصِّفات**»، يَعني أَنَّ شُعوبَ الكلام على أَفْعَالهما أو صفاتِهما ضيّقةٌ يَصْعُبُ السَّيْرُ فيها على الشّاعر، على خِلافِ الكلامِ على الفارسِ أوِ الشّريفِ وأمثالِهما، وكأنَّ ظروفَ حياةِ العرب في الْـجَاهلية ومعيشَتَهم القائمةَ على الحاجة إلى القويّ العَتِيد كانت وراءَ ذلك، فإنَّ فَقْدَ الـمرأةِ أو الطّفلِ لم يكن يؤثِّرُ تأثيرَ فَقْدِ سِواهما، وإِنْ كانَ الإنسانُ – سَواءٌ أكانَ جاهليًّا أم إسلاميًّا – يُمِضُّهَ فِقْدانُ أَيِّ عزيز؛ ولهذا كَثُرَ رثاءُ النِّساءِ والأطفالِ بَعْدَ الإسلامِ بالتّدريج، لاختِلافِ ظروفِ الحياةِ ولتأثير الإسلامِ في نفوسِ النّاسِ، حتّى وُجِدَ بَعْدَ زمَنٍ مَنْ يُكْثِرُ مِن رثاءِ أولادِه كابن الرُّوميّ، أو زوجِه كابنِ جُبَيْرٍ الأندلسيِّ الَّذي أَلّفَ ديوانًا في رثاء امرأتِه؛ فالأمر يرجع إلى الظُّروفِ الحَضاريّةِ الـمحيطةِ بالشّاعرِ وعصرِه.

٥- يُلْحَظُ أنّ الغالِبَ على مراثيهم وضوحُ ألفاظِها وبُعْدُها عنِ الغَريب، وكذلك وضوحُ الـمعاني وبُعْدُها عن الغموض؛ وذلك راجعٌ إلى قُرْبِ هذا الغَرَضِ من النّفسِ الإنسانيّة وشيوعِ ألفاظه وطولِ حياتِها على مرّ العصور، ولا سِيَّما ما يتعلق بالْـجَوانب العاطفيّة في هذا الغرَض، وهو في

هذا شَبِيهٌ بالغَزَل؛ ويضافُ إلى ذلك بُعْدُ الشُّعراءِ في مثل هذه الحال عن الصَّنْعةِ، وانسياقُهُم وراءَ سجاياهم وعواطفهم الصّادقة.

٦- كانَ تأجُّج العاطفةِ والإحساسُ بعظيمِ الفاجعةِ وراءَ ظاهرةٍ لفظيّةٍ هيَ **كَثْرَةُ استعمال مُبالَغَةِ اسمِ الفاعلِ والصِّفةِ المُشَبَّهةِ بالفعل**، وتقترِن بهذهِ الظّاهرةِ في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ ظاهرةٌ أُخْرَى هي **تَقْسِيمُ البَيْتِ** تقسيمًا تتوافر بِهِ قَوافٍ داخليّةٌ، وهو ما يُسَمِّيه البلاغيُّون بـ(**التَّرْصيع**)، وذلكَ في جُمَلٍ اسميّةٍ دالّةٍ على ثَباتِ الصِّفاتِ الّتي يذكرُها الشّاعر في الـمرثيّ، فيتآزَرُ اللَّفْظُ والـمعنى على تعميقِ الشُّعورِ بإحساسِ الرّاثي؛ ومثالُ ذلكَ قولُ الخنساء:

المَجْـدُ خَلَّتُـهُ، والْـجُودَ عِلَّتُـهُ والصِّـدْقُ حَوْزَتُـهُ إِنْ قِرْنُـهُ هابَـا
رَكّـابَ مُفْظِعَـةٍ، حَمّـالَ مُضْـلِعَةٍ إِنْ خـافَ مُعْضِـلَةً سَـنَّى لَهَـا بَابَـا
شَـهّادَ أَنْـدِيَةٍ، هَبّـاطَ أَوْدِيَـةٍ حَمّـالَ أَلْوِيَـةٍ، لِلْـوِتْرِ طَـلَّابَا

٧- وقريبٌ مِن ذلك **ظاهرةُ (التَّكْرَارِ)**، ويكون ذلك إمّا بتكرارِ عباراتٍ أو بعضِها، وإمّا بالإلحاحِ على لفظٍ أو اسمٍ يَغْلِبُ أَنْ يكونَ اسمَ الـمرثيّ، وفي ذلكَ دلالةٌ على تمكُّنِ الـمعنى الَّذي يُكَرِّرُهُ الشّاعرُ بتكرارِ

العبارةِ في نفسِه، وكذلكَ تَكرارُ اللَّفظ، ويَدُلُّ تكرارُ اسمِ المرثيّ على شدّةِ تعلُّقِ الشّاعرِ به وتَشَبُّثِهِ باسمِهِ بَعْدَ فِقْدَانِ جِسْمِه؛ ومثالُ تَكرارِ العباراتِ قَوْلُ المُهَلْهِل:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ إذا طُرِدَ اليَتِيمُ عَنِ الْجَزُورِ

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ إذا رَجَفَ العِضَاهُ مِنَ الدَّبُورِ

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ إذا ما ضِيمَ جِيرانُ المُجِيرِ

فكرَّر صِيغَةَ الشَّطْرِ الأوّلِ سَبْعَ مَرّات؛ ويُلْحَظُ أنَّ اسمَ (كُلَيْبٍ) رافقَ هذا التّكرارَ للعبارة.

٨- **تَوارَدَ الشُّعراءُ على بعضِ العباراتِ في غَرَضِ الرّثاء**، كما تَوارَدُوا على أمثالِها في الأغراضِ الأُخْرى؛ ومِن هذه العباراتِ قَوْلُهم: (إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلَها) وما يقاربُها؛ كقَوْلِ لَبيدٍ:

إنَّ الرَّزِيّةَ لا رَزِيّةَ مِثْلَها فِقْدانُ كُلِّ أَخٍ كَضَوْءِ الكَوْكَبِ

وقَوْل زُهَيْرٍ:

إنّ الرَّزِيّةَ ما لَها مَثَلٌ فِقْدانُ مَنْ يَنْمِي إلى الحَزْمِ

ومن العبارات الّتي توارد عليها الشّعراء قولُـهم: (فَاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ) أو (فَلا تَبْعَدَنْ) ونحوُهما ممّا سَبَقَ في أثناءِ الحديثِ عن الدُّعاءِ للميت.

فهذا هوَ شِعرُ الوفاءِ في الْـجاهليّة، شِعرُ القلوبِ الـمُحْتَرِقَة، أصدَقُ الشِّعر وأشْرَفُه.

****

مصادر و مراجع للاستزادة:

١- **العمدة**: لابن رشيق.

٢- **طبقات فحول الشّعراء**: لابن سلّام الجمحيّ.

٣- **التّعازي والـمراثي**: للمبرّد.

٤- **الـمراثي**: لمحمّد بن العبّاس اليزيديّ.

٥- **العقد الفريد**: لابن عبد ربّه، وقد خصّص منه للرثاء (كتاب الدّرّة في التّعازي والـمراثي).

٦- **العصر الْجاهليّ**: د. شوقي ضيف.

٧- **الأدب الْجاهليّ**: د. غازي طليمات، وعرفان الأشقر.

٨- **الشّعر الْجاهليّ، خصائصه وفنونه**: د.يحيى الْجبوريّ.

٩- **في الأدب الجاهليّ**: د.هاشم صالح منّاع.

١٠- **دراسات في الشّعر الْجاهليّ**: د. أنور أبو سويلم.

١١- **قصيدة الرّثاء، جذور وأطوار**: د.حسين جمعة.

١٢- **الشّعر وأيّام العرب في الْجاهليّة**: د.عفيف عبد الرّحمن.

تمهيدٌ في النّثر الجاهليّ:

ينقسم الكلام الَّذي وصل إلينا منسوبًا إلى الجاهليّين إلى شعرٍ ونثر:

فالشِّعر في الأصل اللُّغَويّ مأخوذٌ من قولهم: شَعَر إذا فَطِنَ وعَلِمَ، وفي الاصطلاح: هو الكلام الموزون المقفّى من أوّله إلى آخره، والَّذي له معنًى شعريّ وأسلوب شعريّ وقصَدَ إليه الشّاعرُ قَصْدًا؛ لأنّ الشّاعرَ عِلِمَ ذلك كلَّه وفطن له.

والنّثر مأخوذٌ في الأصل اللُّغَويّ مِنْ نَثْرِ الشّيء، وهو رَمْيُهُ مُتَفَرِّقًا؛ تقول: نثرتُ الحبَّ ونحوَه إذا رميتَهُ متفرّقًا؛ فهذا الأصلُ اللُّغَويّ يدلُّ على أنّ النّثرَ هُوَ الكلام الَّذي يتكلّم به النّاسُ عامّةً خاليًا من الوزنِ والنّظامِ الموسيقيّ، ولكنْ عند الحديث عن النّثر في الأدب يُعْنَي النّثر الَّذي تعمّد صاحبُه تجويدَه وبذل فيه جُهدًا من حيثُ صياغَتُهُ ولُغَتُهُ ووسائلُه الفنّيّةُ للتّأثير في السّامعين.

ويمكنُ تصنيفُ ما وصل إلَيْنَا عن الجاهليّين من هذا النّثر في أنواع عدَّة: الخطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال، وهنالك الرسائل والعُهود والأحلاف.

ولا بُدَّ قبلَ الوقوفِ عند أنواع النّثر الجاهليّ من التّنبيه على أمرَيْنِ تَناوَلَـهُما بعضُ دارسي النّثر الجاهليّ: الأوّل حول أسبقيّة الشّعر والنّثر، إذ يرى بعضُهم أنّ النّثر أسبق، ويخالفهم آخرون، وكلٌّ يأتي بحُجَجٍ يتخيّل صِحَّتَها يُؤَيِّدُ بها رأيَهُ وينقض رأي الآخر، وهي قضيّة لا تعدو أن تكونَ ضربًا من الجِدالِ الَّذي لا فائدة تُرْتَجى من ورائه؛ فليس يُهِمُّ كثيرًا أن يكون النّثر أسبق أو الشّعر، بلِ الـمُهِمُّ هو هذا الَّذي وصل إلينا من الشّعر والنّثر وكلّ ما يتعلّق بهما؛ ولذلك نضربُ صَفْحًا عن هذا الأمر.

والأمـر الثّـاني هـو توثيـق النّثـر الجـاهليّ، إذ لا يكـاد مُعْظَـمُ دارسي الأدب الجاهليّ يثقونَ إلّا بالقليل النّادرِ من هذا النّثـر، ولـيس لهـم حُجَّـةٌ في ذلك إلّا أنّ هذا النّثر لم يصل إلينا مُدوّنًا من الجاهليّة، وإنّما دُوِّنَ بعـدَ زَمَـن، وأنّ حِفظ النّثر ليس سهلًا كحفظ الشّعر، ثمّ يَعْطِفُـون عـلى هـذا التّشـكيكِ بالقول: «**إنّ هذا الَّذي وصل إلينا على أنّه نثرٌ جاهليّ إنّما يُصَوِّرُ لنا مادّةَ ذلك النّثر وروحَهُ وطبيعتَه وكثيرًا مِنَ مَلامِحِهِ، لكنْ لا بصورةٍ دقيقة، وإنّما بصورةٍ عامّة؛ لأنّ هذا النّثر الَّذي وصل إلينا نَحَلَهُ أُناسٌ بعد الإسلام، ولكـنْ لا بُـدَّ أنّهم كانوا يَقِيسُون على نماذجَ وأساليبَ جاهليّة**».

ولا داعِـيَ للوُقُـوف عنـد هـذا الـزّعم طـويلًا، لأنّ القضـايا الّتـي عُولِجَتْ في توثيق الشّعر الجاهليّ مـن كتابـةٍ وروايـةٍ وتـدوينٍ ونَحْـلٍ تنطبـق

على النّثر الجاهليّ نفسِه، فما وصل إلينا من هذا النّثر عن رواةٍ ثقاتٍ يكون إنكارُهُ والتّشكيك فيه ضَرْبًا مِنَ العَبَثِ الَّذي لا ينتهي؛ ثمّ إذا صحّ أنّهم وضعوا هذا النّثر على نماذجَ وأساليبَ جاهليّةٍ كانت لديهم أفليس من الأجدر أن تَصِلَ إلينا تلك النّماذجُ الّتي كانوا يَقِيسُونَ عليها؟!

وربّما احتجَّ بعضُهم لهذا التّشكيكِ باختلافِ رِوايةِ بعضِ ذلك النّثر؛ وليس ذلك بحُجَّةٍ، لأنّ الاختلاف ممّا يقع في الشّعرِ وفي النّثرِ، لأسبابٍ تتعلّق بالقائل أحيانًا وبالنّاقل أحيانًا وبمصدر النّاقل أو اختلافِ مصدر النّاقلين أحيانًا أخرى؛ ولكنّ ذلك كلَّه لا يُخوِّلُ أحَدًا الشّكّ في صحّةِ أصلِ هذه الآثار.

واحتجّ بعضُهم بأنّ هناك مَنْ لم يتورَّعْ عن وَضْعِ الحديث على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالأَحْرى ألّا يتورّعَ عن وَضْعِ الخُطَبِ ونحوِها على خطباء الجاهليّة، وهذه حُجَّةٌ واهيَةٌ جِدًّا، لأنّ أسبابَ وَضْعِ الحديثِ ودَواعِيَه كثيرةٌ جدًّا دَرَسَها علماءُ الحديث، بخلاف دَواعي الوضْعِ على خطباء الجاهليّة؛ ولا أدَلَّ على ذلك مِنْ أنّ ما وصل إلينا من خُطَبهم وسائرِ نثرهم لا يُعَدُّ شيئًا إذا ما قِيْسَ بما وصل إلينا من شعر الجاهليّة، فلا يكاد المَرْءُ يجد لأشهر خطبائهم خُطَبًا تزيد على أصابعِ اليَدِ الواحدة، وهي خُطَبٌ قصيرةٌ في الغالب، ليس من الصّعب حفظُها وتَناقُلُها.

وكـلُّ هـذا التّشـكيك الَّـذي دَأَبَ عليـه الدّارسـونَ يَرْجِـعُ إلى افتراضاتٍ وأوهامٍ وتخيّلاتٍ تحتاج إلى الدّليل العلميّ الـملموس الـمُقْنِع؛ ولذلك يجبُ الوقوفُ من هذا النّثر موقفَ القاضي العادل الَّذي يُحاكِمُ مُتَّهمًا ما، وإلّا حَكَمَ كلُّ امرئٍ بحَسَبِ هَواه وظُنونه، وإنّ الظّنّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئًا.

وسيكون الكلامُ فيما يأتي على أربعة أنواع رئيسة من النّثر الجاهليّ، هي: الخَطابة، وسَجْع الكُهّان، والوصايا، والحِكَم والأمثال.

أوّلًا: الخَطابة الجاهليّة

١ - دَوَاعي ازدهارِ الخَطابة في الجاهليّة:

كانت حياة العرب في الجاهليّة، بأوجه النّشاط المختلفة فيها من حربٍ وصُلْح، ومنافراتٍ ومفاخَراتٍ، ووفادة على الملوك، ومواسمَ للتّجارة والحجّ، ومناسباتٍ اجتماعيةٍ مختلفة، تُؤهِّل الجاهليّين لأَنْ يُهيِّئوا لهذه الأحوال ما يناسبُها مِن خُطَبٍ تُبَلِّغُهم ما يُريدون، وينهضُ لهذه الخُطَبِ أُناسٌ ملكوا أَعِنَّةَ البيانِ بما فُطِروا عليه من فصاحةٍ وبديهةٍ وذَلاقةِ لِسان، حتّى إنّ الجاحظَ سحَبَ هذا الوصفَ على العربِ عامّةً حينَ قال: «**وكلُّ شيءٍ للعربِ فإنّما هُوَ بديهةٌ وارتجال، وكأنّه إلهامٌ، وليس هناكَ معاناةٌ ولا مُكابَدةٌ ولا إجالةُ فِكرٍ ولا استعانة، وإنّما هو أنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلى الكلام ... عندَ المُقارَعَةِ أوِ المُناقَلَةِ أو عند صِراعٍ أو في حرب، فما هو إلّا أنْ يصرِفَ وَهْمَهُ إلى جُمْلَةِ المَذْهَبِ وإلى العَمودِ الَّذي إليه يَقْصِدُ، فتأتيه المعاني أَرْسالًا، وتَنْثالُ عليه الألفاظُ انثيالًا ...** »، وهذه مبالغةٌ مِن الجاحظ، لأنّ في العرَبِ العَبِيَّ والفصيح، مثلما أنّ فيهم الجريءَ والجبان، ولولا وجودُ الحَصَرِ والعِيِّ مع الفصاحةِ والبَيانِ، لَما وَصفُوا ذلك كلَّه في أشعارهم.

٢- أشهر خطبائهم:

اشتُهِر بالخطابةِ في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من هؤلاء الفصحاء، **ففي قريشٍ** كانَ هاشمُ بنُ عبد مَنافٍ، وابنُه عبد المطّلب، وأميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف، وابنُه حَرْبُ بن أميّة، ونُفَيْلُ بن عبد العزّى، وعُتْبَةُ بن رَبيعة بن عبد شمس، وسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو العامريّ القرشيّ، وغيرهم، **وفي الخَزْرَجِ**: قيسُ بنُ شمّاس، وابنُه ثابتُ بن قيس خطيبُ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، **وفي الأوسِ**: سعدُ بن مُعاذ، **وفي تميم**: أَكْثَمُ بن صَيْفيّ، وعُطارِدُ بنُ حاجِبِ بنِ زُرارة، وقيس بن عاصم، **وفي مَذْحِج**: الأَفْوَه الأَوْديّ، **وفي إياد**: قُسُّ بنُ ساعدة، **وفي شيبانَ**: هانئُ بنُ قَبِيْصَة، **وفي عَدْوان**: عامر بن الظَّرِب؛ وغيرُ هؤلاء كثيرٌ في كلّ قبيلة.

٣- مكانةُ الخَطيب:

كانت القبائل محتاجةً إلى الخُطباء حاجتَها إلى الشّعراء، ليقوموا في المقاماتِ المختلفة؛ على أنّ الشّاعرَ كان مقدَّمًا على الخطيبِ عند قدماء الجاهليّين، ولكنّ الأواخرَ منهم قدّموا الخطيب، وقد علّل أبو عمرو بن العلاءِ ذلك بقوله: «**كان الشّاعرُ يُقَدَّم على الخطيب، لِفَرْطِ حاجتهم إلى الشّعر الَّذي يُقَيِّدُ عليهم مآثِرَهم، ويُفَخِّمُ شأنَهم، ويُهَوِّلُ على عدوِّهم ومَنْ غزاهم، ويُهَيِّبُ مِنْ فرسانهم، ويُخَوِّفُ مِن كَثْرَةِ عددهم، ويهابُهم شاعرُ**

غيرِهم فيراقبُ شاعرَهم؛ فلمّا كثر الشّعر والشُّعراء، واتّخذوا الشّعرَ مَكْسَبَةً، ورحلوا إلى السُّوقَةِ، وتسرَّعوا إلى أعراضِ النّاس، صارَ الخطيبُ عندَهم فوقَ الشّاعر»؛ وفي كلام أبي عمرٍو إشارةٌ خفيّةٌ إلى أنّ الخطباء كانوا في العادة مِنْ أشراف النّاس وسادَتِهم، على خلافِ الشّعراء، فإنّ فيهم مَنْ لم يكن كذلك، فلجأ إلى التّكسّب بالشّعر والرّحلة لِمَدْحِ كلّ مَنْ يُعطيه.

٤- هَيْئَةُ الخطيب وصفاته:

كان للخطباء تقاليدُ وهيئاتٌ يحرِصُون عليها، وصفاتٌ لا غنى عنها؛ فكان مِنَ التّقليد أنْ يَلُوثَ الخطيبُ عِمامَتَهُ على رأسه، لأنّها مِن كمالِ هَيْئَةِ الرّجلِ وجَمالِهِ، وقد أُثِرَ عن عمرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه قولُهُ: «**العَمائمُ تِيجان العرب**»، وعن عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رضي الله عنه: «**جَمالُ الرّجلِ في عِمَّتِهِ**»، وكان الخطيبُ يُمْسِكُ بيده عَصًا أو مِخْصَرَةً أو رُمحًا أو قَوْسًا يتّكئ عليها ويُشيرُ بها، فيرفعُها ويضعُها مُعَزِّزًا بها كلامَه، وقد عابَ عليهمُ الشُّعوبيُّونَ ذلك بعد الإسلام لجهلِهم سَبَبَهُ؛ فردّ عليهم الجاحظُ بقوله: «**إنّ حَمْلَ العصا والمِخْصَرَةِ دليلٌ على التّأهُّبِ للخُطْبَةِ والتّهيُّؤِ للإطنابِ والإطالة، وذلك شيءٌ خاصٌّ في خطباء العرب، ومقصورٌ عليهم، ومنسوبٌ إليهم، حتّى إنّهم لَيَذْهَبون في حوائجِهم والمَخاصِرُ بأيديهم، إِلْفًا لها وتوقّعًا لبعضِ ما يُوجِبُ حَمْلَها والإشارةَ بها**»، ومِن عادتِهم أَنْ

يُشْرِفَ الخطيبُ على النّاسِ حتّى يَرَوْهُ، فيستحوذَ على قلوبهم، فإمّا أن يصعَدَ مرتفَعًا مِنَ الأرض، وإمّا أن يركب على راحلته، فيَخْطُبَ بالنّاسِ وهو يرفع يدَهُ ويَضَعُها مُستَعِينًا بما يُمْسِكُه مِن عصًا أو رُمْحٍ أو قَوْسٍ.

ومن صفات الخطيب الّتي لا بدَّ منها أن يكونَ ثابتَ القلبِ قليلَ التّلفُّتِ، حاضرَ البَدِيهة، لا يتهيّبُ النّاسَ عندما يَرْمُونَ بأبصارهم إليه ويُقْبِلونَ عليه؛ ولا بدّ له أن يكونَ جَهيرَ الصّوت، سليمَ النُّطْقِ، كثيرَ الرِّيْق؛ ولذلك عابوا التَّنَحْنُحَ والارتعاشَ والسُّعالَ والعَبَثَ باللِّحْيَة وتَصَبُّبَ العَرَقِ، لأنّه دليلٌ على تَهَيُّبِ النّاسِ أو العِيّ؛ وقد وصفوا تلك المحاسنَ وهذه المعايِبَ في أشعارٍ ساقها الجاحظ في (البيان والتّبيين).

٥- مناسبات الخَطابةِ وأمْثِلَتُها:

للخَطابةِ مواطنُ ومناسباتٌ كثيرة، إذ كانوا يحتاجون إليها في المُنافَراتِ، والحروب، والدّعوةِ إلى السِّلمِ والصّلح، وفي وِفاداتهم على الملوك، ومواسم الحجّ، والمناسبات الاجتماعيّة كالزّواجِ والعَزاءِ وغيرِ ذلك؛ وفيما يأتي أمثلةٌ قليلةٌ منها، لاستخلاصِ الظّواهر الفنيّة في الخُطْبَةِ الجاهليّة.

فمِنَ المُنافَراتِ المشهورة في الجاهليّة مُنافَرَةُ عبدِ المطّلب بنِ هاشمٍ وابنِ أَخِيه حَرْبِ بن أميّةَ، ومنافرةُ جَريرِ بنِ عبد الله البَجَليِّ وخالد

بن أَرْطَاةَ الكَلْبِيّ، ومنافرةُ عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ وعَلْقَمَةَ بنِ عُلَاثة؛ وممّا جاء في منافرةِ عامرٍ وعلقمةَ – وقد ساقَها الأصفهانيُّ عن الأصمعيّ، وأبي عُبيدة، وابن الكلبيّ، والمفضّل الضَّبِّيّ، وأبي عمرو الشَّيبانيّ، وهي طويلةٌ كانت بينهما مراجعةٌ في الكلام– أنّ عامرًا قال: «**والله لَأَنا أَرْكَبُ منكَ في الحُماةِ، وأَقْتَلُ منكَ للكُماة، وخَيْرٌ منكَ لِلْمَوْلى والمَوْلاة**؛ فقال علقمةُ: **والله إنِّي أَعَزُّ مِنك، إنّي لَبَرٌّ وإنّك لَفاجِر، وإنِّي لَوَفِيٌّ وإنّك لَغادر، فَفِيمَ تُفاخرني يا عامر؟** فقال عامر: **والله إنّي لَأَنْزَلُ مِنكَ لِلْقَفْرَة، وأَنْحَرُ منك للبَكْرَة، وأَطْعَمُ منك لِلْهَبْرَة، وأَطْعَنُ منكَ للثُّغْرَة**».

ومِن خُطَبِهم المشهورةِ أيّامَ الحروب خُطبةُ هانئ بن قَبِيْصَة الشّيبانيّ يومَ ذي قار، يُحَرِّضُ قومَهُ على الحرب، وقد ساقَها القاليُّ بسنده إلى أبي عُبيدةَ؛ قال هانئ: «**يا معشرَ بَكْر! هالكٌ مَعْذور، خَيْرٌ مِنْ ناجٍ فَرور؛ إنّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِنَ القَدَرِ، وإنّ الصّبرَ مِنْ أسبابِ الظَّفَر؛ المَنِيّةُ ولا الدَّنِيّة، استقبالُ المَوْتِ خَيْرٌ منِ اسْتِدْبارِه، والطّعنُ في النُّحُورِ أَكْرَمُ منهُ في الأَعْجازِ والظُّهور؛ يا آلَ بَكْر! قاتِلُوا! فما لِلْمَنايا مِنْ بُدّ**».

ومِن خُطَبِهم في الدّعوة إلى الصُّلح خُطبةُ مَرْثِدِ الخَيْرِ بنِ يَنْكَفَ الحِمْيَرِيّ، وكان قَيْلًا، فوقَعَ تنازُعٌ على السّيادة بين سُبَيْعِ بن الحارث، ومَيْثَمِ بن مُثَوِّبٍ مِن قومِه، فخاف أن يقع بين حيَّيْهِما شرٌّ، فدعاهما، فخطب فيهما،

وسمع منهما، ثمّ عادَ فخطَبَ قائلًا: «**لا تُنْشِطُوا عُقُلَ الشّوارِدِ، ولا تُلْقِحُوا العُونَ القَواعِد، ولا تُؤَرِّثوا نِيرانَ الأحقاد، ففيها المَتْلَفَةُ المُسْتَأْصِلَة، والجائحةُ والأَلِيْلَة؛ وعَفُّوا بالحِلْمِ أَبْلادَ الكَلْم، وأَنِيبُوا إلى السّبيلِ الأَرْشَدِ والمنهَجِ الأَقْصَد، فإنّ الحربَ تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ الغُرور، وتُدْبِرُ بالوَيْلِ والثُّبُور**»، ثمّ قال شعرًا أوّلُه:

ألا هل أتى الأقوامَ بَذْلي نصيحةً حَبَوْتُ بها مِنِّي سُبَيْعًا ومَيْتَما

«فقالا: لا أيّها الملك، بل نقبَلُ نُصْحَك ...».

ومن خُطَبِهم في الوِفادة على الملوك خُطبة أَكْثَمَ بنِ صَيْفيّ، يعزّي فيها المَلِكَ عمرَو بنَ هند اللَّخْميّ وقد مات أخوه:

«**أيّها الملِك! إنّ أهلَ هذه الدّارِ سَفْرٌ لا يَحُلُّونَ عُقَدَ الرِّحالِ إلَّا في غيرِها، وقد أتاكَ ما ليس بَمَرْدودٍ عنك، وارْتَحَلَ عنك ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك مَنْ سيَظْعَنُ عنكَ ويَدَعُك؛ واعلَمْ أنّ الدّنيا ثلاثةُ أيّامٍ:**

فأَمْسِ: عِظَةٌ، وشاهِدُ عَدْلٍ، فَجَعَكَ بنفْسِهِ، وأبقى لكَ وعليكَ حكمَتَه.

واليومَ: غنيمةٌ وصديق، أتاكَ ولم تَأْتِه، طالَتْ عليك غَيْبَتُهُ، وستُسْرِعُ عنك رِحْلَتُهُ.

وغدًا: لا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ، وسيأْتِيكَ إنْ وَجَدَكَ.

فما أحسنَ الشّكرَ للمُنْعِمِ والتّسليمَ للقادِرِ! وقد مَضَتْ لنا أصولٌ نحنُ فُروعُها، فما بقاءُ الفروعِ بعدَ الأصولِ؟ واعلَمْ أنّ أعظَمَ مِنَ المُصِيبَةِ سوءُ الخَلَفِ منها؛ وخَيْرٌ مِنَ الخَيْرِ مُعْطِيه، وشرٌّ مِنَ الشّرِّ فاعِلُهُ».

ومِن خُطَبهم في المواسم خطبةُ قُسِّ بنِ ساعِدةَ الإياديّ في سُوقِ عُكاظ، وقد رآه النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم يومَذاكَ راكبًا على جَمَلٍ أحمرَ يَخْطُبُ بالنّاس ويقول:

«أيّها النّاس! اجتمِعُوا واسمَعُوا وعُوا، انْظُرُوا واذْكُروا؛ مَنْ عاشَ مات، ومَنْ ماتَ فات، وكلُّ ما هُوَ آتٍ آت؛ ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، أَلا إِنّ أَبْلَغَ العِظاتِ السّيرُ في الفَلَواتِ، والنّظرُ إلى مَحَلِّ الأموات؛ إنّ في السّماءِ لَخَبَرًا، وإنّ في الأرضِ لَعِبَرًا؛ ما لي أَرى النّاسَ يذهبونَ فلا يرجِعُون؟ أَرَضُوا هناكَ بالمُقامِ فأَقاموا، أَمْ تُرِكُوا فَناموا؟

يا مَعْشَرَ إيادٍ! أينَ الآباءُ والأجداد؟ وأين المريضُ والعُوّاد؟ وأَينَ الفَراعِنَةُ الشِّداد؟ وأينَ مَنْ بَنَى وشَيَّد، وزخرَفَ ونَجَّدَ، وغرَّه المالُ والوَلَد؟ أَلَمْ يكونوا أكثرَ منكم أَموالًا، وأطولَ منكم آجالًا؟

في الـــــذّاهبينَ الأوَّلِيـــــــنَ مِـنَ القُـرونِ لنـا بَصـائِرْ
لَـــــمّا رأَيْـــــتُ مَـــــوارِدًا لِلْمَـوْتِ لَـيْسَ لهـا مَصـادِرْ

ورَأَيْـــتُ قَـــوْمِي نَحْوَهـــا يَـــمْضِي الأَكـابِرُ والأَصـاغِرْ
لا يَرْجِـــــعُ المـــــاضي ولا يَبْقَـــى مِـــنَ البـــاقِينَ غـــابِرْ
أَيْقَنْـــــــتُ أَنِّي لا مَحـــــــا لَـةَ حَيْـثُ صـارَ القَـوْمُ صـائِرْ»

ومن خُطَبِهم في الـمناسبات الاجتماعيـةِ خُطبـةُ أَبي طالـبٍ –وقيـلَ: حَمْزَة– عَـمِّ النّبـيِّ صـلّى الله عليـه وسـلّم في زواجِ السّـيدةِ خَدِيجَـةَ رضِيَ اللهُ عنها:

«الحمدُ للهِ الَّذي جعلَنا مِنْ زَرْعِ إبراهيم، وذُرِّيَّةِ إسماعيل، وجعلَ لنـا بَلَدًا حَرامًا، وبَيْتًا مَحْجُوجًا، وجعلَنا الحُكّامَ على النّـاس؛ وإنَّ محمّـدَ بـنَ عبـدِ الله، ابنَ أَخي، لا يُوازَنُ به فَتًى مِنْ قريشٍ إلّا رَجَحَ علَيْه، بِرًّا وفَضْلًا، وكَرَمًا وعَقْلًا، ومَجْدًا ونُبْلًا، وإنْ كـانَ في المـالِ مُقِـلًا، فـإنّ المـالَ ظِـلٌّ زائـلٌ، وعاريَّـةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ؛ ولهُ في خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ، ولها فيهِ مثلُ ذلـك، فـما أَحْبَبْتُمْ مِنَ الصَّداقِ فَعَلَيَّ».

٦– الظّواهر الفنيّة في الـخُطَب الجاهليّة:

سبقَ القَـوْلُ إنّ مـا وصـل إلينـا مـن خُطَـبِ الجاهليّـة قليـل، وإنّ مـا وصل إلينا لأشهر خطبائهم لا يكاد يتجاوزُ أصابعَ اليَدِ الواحـدة؛ ولـذلك يصعُبُ أن تُعْطَى أحكامٌ خاصّةٌ لكلِّ خطيب، ولكن يمكن ممّا وصـل إلينـا

من خطبهم أن يُشارَ إلى ظواهرَ عامّةٍ كانت في خطبهم، من حيثُ الشّكلُ، ومن حيثُ المضمونُ.

أ - ظواهرُ في الشّكل:

إنّ أول ما يلفت النّظرَ في خُطَب الجاهليّة هُوَ **القِصَر**، فمعظمُ خطبِهم الّتي بين أيدينا كهذه الخُطَبِ السّابقة قِصارٌ، ولكنْ لا يَعْدَمُ الباحِثُ بعضَ الخطبِ الّتي تتّسم بالطّول، وهي قليلة، كخُطبةِ النّابغة الذُّبيانيّ حينَ وَفَدَ على عمرو بن الحارث الغَسّانيّ وطلَبَ إطلاقَ أَسرى بَنِي ذُبْيانَ، والخُطبةُ الّتي ذكر الجاحظُ أنّ قيسَ بنَ خارجةَ بنِ سِنانٍ الغَطَفانيَّ خطبَها يومًا إلى اللّيل، في حرب داحسٍ والغبراءِ؛ وربّما كان سببُ قلّة الخطبِ الطّويلة ضياعُ كثيرٍ من خطبهم، ولا شكَّ في أنّ الخُطَب الطّويلة أصعبُ حِفظًا من القصيرة.

ومن الظواهر الشّكليّة الواضحة في الخُطبة الجاهليّة أنّ **السَّجْعَ كثِيرٌ فيها**، وهذا السّجع قد يكون شاملًا للخطبة، كما في خطبة قُسٍّ بن ساعدة، وكما هُوَ في المنافرات مثل منافرة عامر وعلقمة، وكذلك كان كلام الحُكّام الَّذين يَحْكُمون بين المتنافرين، حتّى جَعَل الجاحظُ السّجعَ صفةً عامةً لأَحْكام الحُكّام، فقد ذكر عددًا منهم فقال: «كانوا يَحْكُمُونَ ويُنَفِّرُونَ بالأَسْجاع»؛ ومثال ذلك قول نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى العَدَوِيِّ القُرَشِيِّ –وهو

جَدُّ عُمَرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه- يُخاطِبُ حَرْبَ بنَ أميّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَناف ويُنَفِّرُ ابنَ عَمِّ أَبيهِ عبدَ المُطَّلِب بنَ هاشمِ بنِ عبدِ مَناف عليه: «**يا أبا عَمْرو! أَتُنافِرُ رَجُلًا هو أطولُ مِنْكَ قامَةً، وأَعظَمُ منك هامَةً، وأَوْسَمُ منك وَسامَةً، وأَقَلُّ منك مَلامَةً، وأَكثرُ منك وَلَدًا، وأَجْزَلُ منك صَفَدًا، وأَطْوَلُ منك مِذْوَدًا؟ وإِنِّي لَأَقولُ هذا، وإِنَّكَ لَبَعيدُ الغَضَب، رَفِيعُ الصَّوْتِ في العَرَب، جَلْدُ المَرِيرة، جَلِيلُ العَشِيرة؛ ولكنَّكَ نافَرْتَ مُنفَّرًا**».

وقد يكونُ السّجعُ غالبًا، كما في خطبةِ هانئ بن قَبِيْصَة؛ وقد لا يكون غالبًا، كما في خطبة أبي طالب.

وتتميّز هذه الخُطَبُ **بِقِصَرِ العبارة، وتوازُن العباراتِ المُتَتاليَة**، وهو مثلُ السَّجْعِ ممّا يُوَفِّرُ لها موسيقى تؤثِّرُ في المستمع.

وربّما لجأ الخطيبُ إلى **الاعتمادِ على الشِّعر** واختتامِ الخُطْبة به، ولكنّ ذلك نادرٌ في خطبهم، ومثالُه خُطبة ابنِ ساعدة، وخُطبة مَرْثِدِ الخَيْرِ.

ب- ظواهرُ في المَضمون:

ممّا يُلْحَظُ في مُعظَمِ الخطب الجاهليّة **وَحْدَةُ الغَرَض**، ولكنّنا لا نعدَمُ خُطَبًا تتعدّدُ أغراضُها،كخطبةِ النّابغةِ الذُّبيانيّ أمامَ عَمْرٍو الغسّانيّ، فقد بدأها بمدح الملك، ثمّ انتهى إلى طلبِ إطلاقِ الأسرى، وكذلك خُطبةُ عبدِ المُطَّلِبِ أمامَ سيفِ بنِ ذِي يَزَن أوِ ابنِه مَعْدِيكَرِبَ بنِ سَيْفٍ، فقد بدأَ بمدحِ الملِكِ، ثُمّ افتخرَ بقَوْمِه قُرَيْش، وهنَّأَ الملِكَ في آخرها؛ وفي

الإمكانِ القولُ إنّ للخطيبِ غَرَضًا رئيسيًّا، مَهَّدَ لهُ بما يستميل إليهِ المُخاطَب ويُكْسبُهُ وُدَّه، فإذا ما انتهى إلى غَرَضِهِ وَجَدَ عندَه ما يطلُبُه، كما كان الشّاعُر يَفعلُ في القصيدِ.

ومن الظّواهر المعنَويّةِ **وضوحُ الأفكار، وبعدُها عن الغموض والتّعقيد**، وهو أمرٌ مَلحوظ في جميع الخطب؛ كما يُلحظ أنّ الخطبةَ تتسلسل في الغالب تسلسلًا منطقيًّا، لها افْتِتاحٌ وجَسَدٌ واختتام، إِذْ تبدأُ في العادة بعبارة تتضمّنُ نداءً أو مُخاطَبةً أو نحوَ ذلك ممّا يشدّ الأسماع إلى الخطيب، ثمّ يذكر ما يريد، ويختمها بعبارةٍ تحملُ حِكْمَةً أو نحوها مما يلخّص المُرادَ.

ويُلحظُ أنّ **الإنشاءَ**، مِن أمرٍ ونهيٍ ونداءٍ واستفهامٍ وتمنٍّ وتعجّبٍ، **يَغْلِبُ على الخبر**؛ ولا شكّ في أنّ ذلك ممّا يُبقي المخاطَبينَ مشدودين إلى الخطيب، لأنّ الإنشاءَ أسلوبٌ يستدعي مشاركةَ الآخَرِينَ، أكثرَ من الخبر؛ فكانَ مِنْ فِطْنَتِهِمْ أَنَّ الخطيبَ عندما يستعمل الخبرَ يلجأُ إلى التّأكيد بالقَسَمِ وأَحْرُفِ التّنبيهِ وأحرفِ التّوكيد وغيرِها من أساليب التّأكيد، وربّما لجأ إلى الموازَنَةِ والمقارنة، وهو مِمّا يُكْسِبُ الخبرَ حيويّةً تبعِدُهُ عن جَفافِ الخبر العاديّ.

وكلَّ هذه الظّواهر الشّكليّة والمعنويّة كانت توفِّر للخُطبةِ الجاهليّة جمالًا فنّيًّا أحسَّ به الجاهليّون فاستلذّوا سماعَها، حتّى شبَّهوها «بالثّيابِ

الـمُوَشّاةِ وبالحُلَلِ والـدّيْباج وأشباهِ ذلك،كما في رثاءِ أبي قُرْدُودةَ الطّائيّ لابنِ عَمّارٍ خَطِيبِ مَذْحِجَ حين قُتِلَ، فقال:

ومَنْطِـــقٍ خُـــرِّقَ بِالعَواسِـــلِ لَـذٍّ كَـوَشْيِ اليُمْنَـةِ الـمَراحِلِ

وهكذا تبيّنَ أنّ الخَطابةَ في الجاهليّة توافَرتْ لها أسبابٌ جعلتها تزدهر، فاشْتُهِرَ بها في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من البلغاء الفُصَحاء تميَّزُوا بصفاتِ الخطيبِ النّاجح، فخطبوا في مناسباتٍ مختلفةٍ، ووفّروا لخطبهم مظاهرَ فنّيّةً في شكلِها ومضمونها جعلَتِ النّاسَ تتأثّرُ بها وتُقْبِلُ عليها بآذانٍ مُصْغِية، وقلوبٍ واعية.

ثانيًا: سَجْع الكُهّان

الكَهانَةُ، بفتح الكاف، مصدرُ: كَهَنَ لَهُ، إذا قَضَى له بالغيبِ، وقلّما يُقالُ إلاّ: تَكَّهَنَ؛ وقد كَهُنَ إذا صار كاهنًا؛ والحِرْفَةُ: الكِهانة، بكسر الكاف؛ ويلحق بالكِهانة العَرَافة والتَّنْجِيم؛ والعرب تُسَمِّي كاهنًا كلَّ مَنْ تَعاطَى عِلْمًا دقيقًا، ومنهم مَنْ يُسَمِّي المُنَجِّم والطّبيبَ كاهنًا.

والكِهانةُ ظاهرةٌ معروفةٌ عند جميع الأممِ على اختلافِ درجاتها في التَّحضُّر؛ وقد تكَّلم على الكِهانة كثيرٌ من أهل العلم قديمًا وحديثًا وبسطوا القولَ فيه وأوجزوا؛ والكِهانةُ ضُروبٌ عِدّة، فمِن الكُهّان في الجاهليّة مَن كان يَذْكُرُ أنّ له صاحبًا مِنَ الْجِنِّ، يُخْبِرُه بما يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ مِنَ السّماء، أو يخبره بما يطرأ ويكون في أنحاء الأرضِ مِمّا يَخْفَى عليه، ويُسمَّى ذلك الْجِنِّيُّ رَئِيًّا، ومِنَ الكُهّان مَنْ كان يَسْتَدِلُّ على الأمور بظنِّه وحَدْسِهِ وتَخْمِيْنِهِ، وهي مَقْدِرةٌ لا تُنْكَرُ عندَ بعضِ النّاس، ولكنّهم كانوا يَزْعُمونَ أنّهم يعرفون تلك الأمورَ بالزَّجْرِ والطَّرْقِ بِالحصى. والنُّجومِ ونحو ذلك، ومِنْهم مَنْ يَستَنِدُ إلى التّجربةِ والعادة، فيتوقّعُ أمورًا بناءً على مُقَدِّماتٍ مِنَ الكلام أو الأفعال أو الأقوال سَلَفَتْ في حوادِثَ أُخرى.

١ - الكهانة عند العرب:

عرَفَ العربُ هذا الضَّرْبَ مِنَ العِلْمِ في الجاهليّة، وكان شائعًا فيهم، ولا سِيَّما في اليمن، حتّى كان العرب يأتونهم مِن كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ يستشيرونهم ويَصْدُرونَ عن رَأْيِهِمْ؛ ولعلّ كَثْرَةَ انتشارهم في اليمن راجعٌ إلى كَثْرَةِ المعابدِ الوثنيّة فيه، وإلى تقديسِهمُ الشّمسَ والقمرَ والنّجومَ منذ أقدم عصورِهم.

وقد **اشتهر بالكِهانةِ عددٌ من الرّجالِ والنّساء**، لَيْسُوا بكَثْرَةِ الخُطَباء، فمن الكُهّانِ المعروفين: سَطِيحٌ، وهو رَبِيعُ بنُ رَبِيعَةَ الذِّئْبِيُّ الغَسّانيّ مِن أهلِ الْجَابِيَةِ بالشّام، وشِقُّ بنُ الصَّعْبِ البَجَلِيُّ القَسْرِيّ الأَزْديّ، وسَلَمَةُ بنُ المُعَقَّلِ الحارثيّ، وسَلَمَةُ بن أَسْحَمَ القُضاعيّ، وكانَ سادِنًا للعُزَّى، والكاهنُ بنُ حبيبٍ الخُزاعيّ، وعَوْفُ بن رَبيعةَ الأَسَدِيّ، وغيرُهم؛ ومِنَ الكَواهِنِ: طَرِيفَةُ الخَيْرِ الَّتي كانت معَ مُزَيْقِياءَ عَمْرِو بنِ عامِرٍ مِنْ سَبَأ، وزَبْراءُ القُضاعيَّةُ كاهِنَةُ بَنِي رِئامٍ في اليَمَنِ، وكاهِنَةُ ذِي الخَلَصَةِ -وهو صَنَمٌ للعَرَبِ بـ(تَبالةَ) - وسَلْمَى الهَمْدَانيّة، والزَّرقاءُ بِنْتُ زُهَيْرٍ الْجَدِيسيَّة، ونَجَاح كاهِنَةٌ كانت بالحِجاز، وغيرُهُنّ؛ ويُلْحَظُ أنّ معظم هؤلاء الكُهّان والكَواهِن من قبائل اليمن.

٢- مناسبات الكهانة وأمثلةٌ مِنْ سَجْعِ الكُهّان:

احتاجَ الجاهليّون إلى هؤلاء الكُهّان في كثير من أمورِهم وشؤونهم الخاصّةِ والعامّة، كالزَّواجِ والوِلادةِ والحرب ودَفْعِ الدِّيَاتِ والإقامةِ والظَّعْنِ، وكانُوا يُحَكِّمُونَهم في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم؛ فكانوا يَقْصِدُونَهم ليستشيرُوهُمْ ويَسْتَنْبِئُوهُم، ثُمَّ كانُوا يَصْدُرُونَ عَن رأيِهم، ورُبّما خالَفُوهم.

وما يُهِمُّنا مِن هؤلاءِ الكُهّانِ ما وصل إلينا مِن آثارهم الأدبيّة، ولذلك سنقفُ عند أمثلة من أقوالهم، لِنَرى كيف كانوا يتكلّمون، وما الظَّواهر الفنّيّة في كلامهم.

فمن ذلك أنّ رُقَيَّةَ بِنْتَ جُشَمَ زَوْجَ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ والدِ بَنِي عامرٍ ولَدَتْ لَهُ نُمَيْرًا وهِلالًا وسُواءَةَ، ثُمَّ حمَلَتْ فأَتَتْ كاهِنَةَ ذِي الخَلَصَةِ فأَرَتْها بَطْنَها، فنظرَتْ إليها ومَسَّت بَطْنَها وقالت: «**رُبَّ قبائِلَ فِرَق، ومَجالِسَ حِلَق، وظُعُنٍ خُرُق، في بَطْنِكِ زُقّ**»، فلمّا جاءَها المَخَاضُ قالت: «أعرِفُ ضَرِطِي بِهلالٍ!»، أَيْ: هُوَ غُلامٌ كما أنّ هِلالًا كانَ غُلامًا.

ومنه أنَّ عَمْرَو بنَ بَرّاقَةَ الهَمْدانيّ – وكان شاعرًا صُعْلُوكًا- أراد الإغارةَ على رجلٍ مِنْ مُرادٍ يُقالُ له (حَرِيم)، فأَتى سَلْمَى الهَمْدانيّةَ

يَسْتَشِيرُها، فقالت[1]: «**والخَفْوِ والوَمِيْض، والشَّفَقِ كالإِحْرِيض، والقُلَّةِ والحَضِيض! إنَّ حَرِيمًا لَمَنِيعُ الحِيْز، سَيِّدٌ مَزِيز، ذُو مَعْقِلٍ حَرِيز؛ غَيْرَ أَنِّي أَرى الحُمَّةَ سَتُظْفِرُ مِنْهُ بِعَثْرَة، بَطِيئَةِ الْجَبْرَة؛ فأَغِرْ ولا تُنْكَعْ**»، فأغارَ عمرٌو فاسْتاقَ كلَّ شَيْءٍ لَه.

ومنه أنّ زَبْراءَ القُضاعيّةَ الكاهنةَ أَنْذَرَتْ بَنِي رِئامٍ مِن غَزْوِ بَنِي ناعِبٍ وبَنِي واهِنٍ، فقالت[2]: «**واللَّوْحِ الخافِق، واللَّيْلِ الغاسِق، والصّباحِ الشّارِق، والنَّجْمِ الطّارِق، والمُزْنِ الدَّافِق! إنَّ شَجَرَ الوادِي لَيَأْدُو خَتْلا، ويَحْرُقُ أَنْيابًا عُصْلا، وإِنَّ صَخْرَ الطَّوْدِ لَيُنْذِرُ ثُكْلا، لا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلا**»؛ وكان في القَوْمِ سُكارَى، فسَخِرُوا منها، فطَرَقَهُمُ العَدُوُّ فقَتَلُوهُم.

ومنه ما كانَ مِن مُنافَرَةِ هاشِمِ بنِ عبدِ مَنافٍ وابنِ أَخِيهِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عبدِ مَناف، إذ أَتَيَا الكاهِنَ بنَ حبيبٍ الخُزاعيَّ - وكانَ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ مَكّة- وكانَ معَ أُميّةَ والِدُ زَوْجِه أَبُو هَمْهَمَةَ بنُ عبدِ العُزَّى الفِهْريُّ، فقال الكاهن: «**والقَمَرِ الباهِر، والكوكبِ الزّاهِر، والغَمامِ الماطِر،**

---

(١) الخَفْوُ: اللَّمَعانُ الضَّعيف؛ والوَميض: أَشَدُّ لَمعانًا مِنه. والإِحْرِيض: حِجارةُ النَّوْرَةِ (الكِلْس). والحِيْز: النّاحية. ومَزِيز: فاضل. والحُمَّة: القَدَر، واحِدَةُ الحِمام. وتُنْكَع: تُرَدّ.

(٢) اللَّوْح: الهواءُ الَّذي بين السّماء والأرض. يَأْدُو: يَخْتِلُ. وحَرَقَتْ أَنْيَابُه: حَكَّ بَعْضُها بَعْضًا. والعُصْلُ: المُعْوَجّة. والمَعْلُ: المَنْجَى.

وما بِالْجَوِّ مِن طائِر! وما اهْتَدَى بعَلَمٍ مُسافِر، مِنْ مُنْجِدٍ وغائِر، لَقَدْ سَبَقَ هاشِمٌ أُميَّةَ إلى المَآثِر، أَوَّلٌ مِنْهُ وآخِر، وأَبُو هَمْهَمَةَ بذلِكَ خابِر»، فقَضَى لهاشِمٍ بالغَلَبَةِ.

ومنه أنّ بني تميمٍ أغاروا على لَطِيمَةٍ[1] لِكِسْرَى، فأوقعَ بهم، وقَتَلَ المُقاتِلَةَ، فبلَغَ ذلك بني الحارثِ بنِ كعبٍ مِن مَذْحِج، وحالَفُوا قبائلَ أُخرى مِن اليَمَنِ وساروا يُرِيدُونَ بني تميمٍ، فحذَّرَهم سَلَمَةُ بن المُعَقَّلِ كاهنُ بني الحارِث فقال: «**إنّكم تَسِيرُونَ أَعْقابًا، وتَغْزُونَ أَحْبابًا، سَعْدًا ورِبابًا، وتَرِدونَ مِياهًا جِبابًا، فتَلْقَوْنَ عليها ضِرابًا، وتَكُونُ غَنِيمَتُكُمْ تُرابًا؛ فأَطِيعُوا أَمْرِي ولا تَغْزُوا تَمِيمًا!**»، فخالَفُوه، فقاتلَهُم بنو تميمٍ وهزَمُوهم هَزِيمَةً نَكْراءَ.

ومنه أنّ عبد المطّلب بن هاشم كان له ماءٌ بالطّائف يقال له (ذو الهَرِم) فغلبه عليه جُنْدُبُ بنُ الحارثِ الثّقفيُّ، فنافرهم عبدُ المطّلب إلى سَلَمَةَ بنِ أَبي حَيّةَ القُضاعيّ، وهو المعروف بعُزَّى سَلَمَة، وكانَ بالشّامِ، فخَبَّؤُوا له خَبِيئًا ليَخْتَبِرُوه فعَرَفَه، فطلبوا إِلَيْهِ الحُكْمَ، فقال: «**أَحْكُمُ بالضِّياءِ والظُّلَم، والبَيْتِ والحَرَم! أَنَّ الماءَ ذا الهَرِم، للقُرَشِيِّ ذِي الكَرَم**».

---

(١) عِيْرٌ فيها تِجارةٌ مِنْ بَزٍّ وطِيْبٍ.

٣ - الظّواهر الفنيّة لسجع الكهّان:

هذه الأمثلةُ مِن آثار كُهّان الجاهليّة تُعطي صورةً لكلامِهم وظواهرِه الفَنِّيَّةِ شَكْلًا ومضمونًا.

أ- ظواهرُ الشَّكل:

يُلحَظُ أنّ أبرز ما في كلامهم من حيثُ الشّكلُ هو **ملازمَتُه السَّجْعَ**، حتّى قال الجاحظُ في بعضهم: «كان حازِي جُهَيْنةَ وشِقٌّ وسَطِيحٌ وعُزَّى سَلَمَة وأشباههم يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع»، والحازي: الكاهن؛ وقد ضرَبَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بِسَجْعِهِمُ المثَلَ، إِذِ اقْتَتَلَتِ امرأتان مِن هُذَيْلٍ، فرمَتْ إحداهما الأُخرى بحَجَرٍ فأصابَتْ بطنَها وهيَ حامِلٌ، فقتلَتْ ولدَها، فقضى بأنْ يُودَى الطِّفْلُ غُرَّةَ عبدٍ أو أَمَةٍ، فقال وَلِيُّ المرأةِ الّتي غَرِمَتْ: «**كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لا شَرِبَ ولا أَكَل، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلّ، فمِثْلُ ذلكَ يُطَلّ**»، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «**إنَّ هذا مِن إِخوانِ الكُهّان**»، وذلك بسبب سَجْعِه الَّذي سجَعَ؛ وهذا السّجع الَّذي يلازم كلامَهم يعتمدُ في الغالب على سَجْعَةٍ واحدة، على خِلافِ كلامِ الخُطَباء، فإنّهم يُنَوِّعون فيه.

وممّا نلاحظُ أيضًا **قِصَرُ عباراتهم وتوازنُها**، وهي في الغالبِ أقصرُ مِن عباراتِ الخطباء؛ بل إنّ أقوالَهم هذه جُمْلَةً تتميّزُ بالقِصَر، إذ لا تكادُ

تصلُ إلى عَشْرِ سَجَعاتٍ في أطوَلِها إلّا نادرًا؛ وكلّ ذلك يوفّرُ لأقوالهم ما يَبْهَرُ السّامعَ ويؤثّرُ فيه.

وأمّا **خَلْطُ الشّعرِ بالنّثرِ** الّذي تُلْحَظُ قلّتُه في خُطَبِ الجاهليّين، فقلّما نلقاهُ في آثارِ كهّانِهم أيضًا، وإن كانَ بَعْضُ تَكَهُّنِهم شِعرًا أحيانًا.

ب- ظواهرُ المضمون:

يُلحَظُ في سجع الكهّان من حيثُ المضمونُ: **كَثْرَةُ أَقْسامِهِم بمظاهرِ الطّبيعةِ** من نجومٍ وكواكبَ، وبَرْقٍ وغَمامٍ ورِياح، وحَيَوان، ونحو هذا؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ في هذه الأشياء قُوًى وأرواحًا خَفِيَّةً؛ ولأنّ الاعتماد على القَسَمِ مِن أساليبِ التّوكيدِ والمبالغة، فهم يؤثّرونَ بأَقْسامِهم هذه فيمَنْ جاء إليهم؛ وقد جاء القَسَمُ بمظاهرِ الطَّبيعةِ وغيرِها في القرآن الكريم كثيرًا تَنْبيهًا على عَظَمَةِ الخالِقِ وتمهيدًا للأمر الَّذي تتناولُه الآياتُ بعدَ القَسَمِ، ولله تَعالى أَنْ يُقْسِمَ بِما شاءَ مِن خَلْقِه، ولكنْ لا أَثَرَ لِلْقَسَمِ بشيءٍ مِن ذلك في أحاديثِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهذا مِنَ الفَوارِقِ المُمَيِّزةِ لكلامِ اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ كلامِ رَسُولِه.

وتكثُرُ في كلامِهِمُ **الألفاظُ الغامِضةُ** الّتي ربّما ألجأهم إليها السّجع، وربّما لجؤوا إليها ليوفّروا لعباراتهم غموضًا يسمَحُ بتعدّد تأويلِها، وربما كانت كثرتُها لأنَّ معظمَهم مِنَ اليمن، وفي لغةِ اليمنِ ألفاظٌ ليسَتْ في لغةِ الشَّمال.

وبـذلك روّج كُهّـانُ الجاهليّـة أقـاويلَهم بأَسْـجاعٍ كانـت تـروقُ السّامعين، فيَسْتَمِيلون بها القلوب، ويستَصْغُون إليها الأسماعَ، فكان لهم ذلكَ الأثرُ والسّيطرةُ على الجاهليّين، حتى جاء الإسلامُ فذمَّهم، ونَهى عن غِشْيانِهم، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «**مَنْ أَتَى كاهِنًا أو عَرّافًا فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على مُحَمَّد**»، وعندما ذُكِرَ له أنّهم يُحَدِّثونَ أحيانًا بِشيء فيكونُ حقًّا قال: «**تِلْكَ الكلمةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُها الْجِنِّيُّ، فَيُقِرُّها في أُذُنِ وَلِيِّه، فَيَخْلِطُونَ معَها مِئَةَ كَذْبَة**».

ثالثًا: الوَصايا الجاهليّة

١ - تَعْرِيفُ الوَصِيَّةِ وبعضُ ما أُلِّفَ فِيها:

الوصيّةُ الأدبيّةُ ضَرْبٌ منَ الأدبِ الرّفيع، يحملُ مِنَ النّصائحِ ما يَتَوَخَّى المُوصِي بها خَيْرَ المُوصَى، مِن أَمْرٍ بما يكون فيه خَيْرُه، ونَهْيٍ عمّا يكونُ فيه شَرُّه؛ والرُّجوعُ إلى الأصل اللُّغَويّ للوصيّة يكشِفُ جانبًا من تعريفِها ومِن هدفِها، فالعربُ تقول: وَصَيْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ إذا وَصَلْتَه، ومنه يُقالُ: أَرْضٌ وَاصِيَةُ النَّبات إذا اتَّصَل نَباتُها، وفَلاةٌ وَاصِيةٌ إذا اتّصلَتْ بفَلاةٍ أُخرى، وكلُّ مَنْ كانَتْ بينَهُ وبينَ غيرِهِ صِلَةٌ فهو وَصِيُّهُ، ومِنْ ثَمَّ كان معنى (الوَصِيَّةِ) الصِّلةَ الّتي أَرادَ المُوصِي أَنْ يَصِلَ بها المُوصَى، وهي الصِّلَةُ بينَ الوَصِيِّ ووَصِيِّهِ.

وقد جاءَنا عنِ الجاهليّينَ مجموعةٌ مِن الوصايا شِعْرًا ونَثْرًا، حَفِظَها العرَبُ إلى ما بعدَ الإسلام، ومَدارُ الحَدِيثِ هُنا عَمّا جاءَ نَثْرًا، وقد أدرَكَ العلماءُ الأوائلُ قيمَتَها فخَصَّصوا لها كُتُبًا جَمَعُوها فيها، ككِتابِ (وصايا العرب) لهشامِ بنِ مُحَمَّدٍ الكَلْبيّ، و(الوصايا) لأَبي حاتِمٍ السَّجِستانِيّ، طُبِعَ مع كِتابِه (المُعَمَّرُون)، و(وَصايا المُلوكِ وأَنْباءُ أَبْناءِ المُلوك) أو (وصايا ملوك العرب في الجاهليّة) لأبي الطَّيِّبِ محمّد بن إسحاق بن يحيى النحويّ، ويُعرَفُ بابنِ الوَشّاءِ وهو مطبوع، وجُلُّ ما فيه مِن الوصايا والأشعار

مُخْتَلَقٌ، ونُسِبَ لِدِعْبِلِ بنِ عليٍّ الخُزاعيّ الشّاعر، و(كتاب الوصايا) لأَبي حَنِيفةَ الدِّينَوَرِيّ؛ وفي هذا العصرِ جَمَعَ أحمد زَكِي صَفْوَت عددًا منها في كتابه (جَمْهَرَة خُطَبِ العَرَب)، وجَمَعَ مُحَمّد نايف الدُّلَيْمِيّ وَصايا العربِ في الجاهليّة والإسلام في كتابِه (جَمْهَرَة وَصايا العرب) في ثلاثة أجزاء، استأثرَتْ وصايا الجاهليّةِ بِبَعْضِ الجُزْءِ الأَوَّل.

٢- دَواعِي الوصايا وأَمْثِلَةٌ مِنها:

يَلْحَظُ مُتَتَبِّعُ الوصايا الّتي وصلت إلينا من الجاهليّين أنّ الآباءَ والأمّهاتِ والملوكَ والسّادةَ والحكماءَ كانوا يُلْقُونَ وصاياهم إلى أبنائِهم وأبناءِ قبائلهم ومَنْ يُهِمُّهم فَلاحُهُمْ ونَجاحُهُمْ، يُلَخِّصُون فيها تَجارِبَهُمْ في الحياةِ بعدَما عَرَكَتْهُمْ وعَرَكُوها، فذَاقُوا حُلْوَها ومُرَّها، وخَبِروا خَيْرَها وشَرَّها، وعرفوا شِدَّتها ولينَها.

وقد يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ مِن شَرْطِ الوَصيَّةِ أَنْ يُلْقِيَها رَجُلٌ أَدْبَرَتْ عنه الحياةُ وأَقْبَلَ عليه الموتُ، فأَلْقَى وَصِيَّتَهُ كالمُوَدِّع، وليسَ هذا شَرْطًا ضَرُوريًّا، فقد تكون مِن حَيٍّ لا يَزالُ في عُنْفُوانِهِ إلى حَيٍّ مِثْلِهِ ولكِنْ تَنْقُصُهُ خِبْرَتُهُ؛ على أَنَّ جُلَّ ما وَصَلَ إلينا مِن وَصايا الجاهليِّينَ قالَهُ أُناسٌ مُعَمَّرُونَ.

ولا بُدَّ لمعرفةِ الوصايا الجاهليّة مِن الوقوفِ على بعضِ أمثلتها، لِلاطّلاع على بعضِ مضْمُونِها وبعضِ الظّواهر الفنّيّة الّتي قامت عليها.

أ- فمِن وصايا الجاهليّين عددٌ قليلٌ توجَّه بهِ الآباءُ أو الأمّهاتُ إلى أبنائِهم أو بناتِهم حينَ أَقْبَلُوا على **الحياة الزّوجيّة**، ومِن أشهر تلك الوصايا وصيّةُ أُمامةَ بنتِ الحارثِ الشَّيْبانيّةِ امرأةِ عَوْفِ بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ حينَ أَرادوا حَمْلَ ابنتِها إلى الحارِثِ بنِ عَمْرٍو الكنديّ المَلِكِ، فقالت لها:

«أَيْ بُنيَّة! إنَّ الوصيّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تُرِكَتْ لِذلِكِ مِنْكِ، ولكنَّها تَذْكِرَةٌ للغافِلِ، ومَعُونَةٌ للعاقِلِ؛ ولو أنَّ امرأةً اسْتَغْنَتْ عنِ الزَّوْجِ لِغِنى أَبَوَيْها، وشِدَّةِ حاجَتِهما إلَيْها، كُنْتِ أَغْنى النّاسِ عنه، ولكنَّ النِّساءَ لِلرِّجالِ خُلِقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرِّجالُ.

أَيْ بُنيَّة! إنّكِ فارَقْتِ الْجَوَّ الَّذي مِنْهُ خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الَّذي فيهِ دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ، وقَرِيْنٍ لَمْ تَأْلَفِيهِ، فأَصْبَحَ بِمُلْكِهِ عَلَيْكِ رَقيبًا ومَلِيكًا، فكُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْدًا وَشِيْكًا!

يا بُنيّة! احْمِلِي عَنِّي خِصالًا عَشْرًا، تَكُنْ لَكِ فَخْرًا وَذِكْرًا:

- الصُّحْبَة بالقَناعَةِ، والمُعاشَرَة بِحُسْنِ السَّمْعِ والطَّاعَة.

- والتَّعهُّد لِمَوْقِعِ عَيْنِهِ، والتَّفَقُّد لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ؛ فلا تَقَع عَيْنُهُ مِنْكِ عَلى قَبِيحٍ، ولا يَشَمّ مِنْكِ إلّا طِيبَ رِيحٍ؛ والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْنِ المَوْجُودِ، والماءُ أَطْيَبُ الطِّيبِ المَفْقُودِ.

- والتَّعَهُّد لِوَقْتِ طَعامِهِ، والهُدُوُّ عِنْدَ مَنامِهِ؛ فإنَّ حَرارَةَ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ.

- والاحْتِفاظ بِبَيْتِهِ ومالِهِ، والرِّعاية عَلى نَفْسِهِ وحَشَمِهِ وعِيالِهِ؛ فإنَّ الاحْتِفاظَ بالمالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، والإِرْعاءَ عَلى العِيالِ والحَشَمِ جَمِيلُ حُسْنِ التَّدْبيرِ.

- ولا تُفْشِي لَهُ سِرًّا، ولا تَعْصِي لَهُ أَمْرًا؛ فإنَّكِ إِنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ، وإِنْ عَصَيْتِ أَمْرَهُ أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ.

- ثُمَّ اتَّقِي مَعَ ذلِكِ الفَرَحَ إِنْ كانَ تَرِحًا، والاكْتِئابَ عِنْدَهُ إِنْ كانَ فَرِحًا؛ فإنَّ الخَصْلَةَ الأُولى مِنَ التَّقْصيرِ، والثّانيةَ مِنَ التَّكْديرِ؛ وكُونِي أَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ إِعْظامًا، يَكُنْ أَشَدَّ ما يَكُونُ لَكِ إِكْرامًا، وأَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ مُوافَقَةً، يَكُنْ أَطْوَلَ ما تَكُونِينَ لَهُ مُرافَقَةً؛ واعْلَمِي أَنَّكِ لا تَصِلِينَ إِلى ما تُحِبِّينَ حتّى تُؤْثِرِي رِضاهُ عَلى رِضاكِ، وهَواهُ عَلى هَواكِ، فِيما أَحْبَبْتِ وكَرِهْتِ؛ واللهُ يَخِيْرُ لَكِ!»، فحُمِلَتْ إليه، فعَظُمَ مَوْقِعُها منه، ووَلَدَتْ لَهُ مِنَ المُلُوكِ سَبْعَةً.

وأوصى أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ التَّمِيمِيُّ بَنِيهِ، فقال:

«يا بَنِيَّ! لا يَغْلِبَنَّكُمْ جَمالُ النِّساءِ عَنْ صَراحَةِ النَّسَبِ، فإنَّ المَناكِحَ الكَرِيمَةَ مَدْرَجَةٌ لِلشَّرَفِ».

ب- ومِنْ **وصايا المُلوكِ إلى أَبْنائِهِمْ** وَصِيَّةُ المُنْذِرِ بنِ المُنْذِرِ بنِ ماءِ السّماءِ إلى ابنِهِ النّعمانِ، فقد دعاهُ وهو غلامٌ شابٌّ فقال:

«يا بُنَيّ! إنَّ لي فيكَ رَأْيًا دُونَ غَيْرِكَ مِنْ وَلَدِي، فإنِّي آمُرُكَ بما أَمَرَنِي بِهِ والِدِي، وأَنْهاكَ عَمّا نَهانِي عَنْه:

آمُرُكَ بالذُّلِّ في عِرْضِك، وذلكَ أَنْ تَكُونَ ذَلُولًا في المَعْرُوف، وعلَيْكَ الانْخِداعُ في مالِكَ.

وأُحِبُّ لكَ خَلْوَةَ اللَّيْلِ وطُولَ السَّمَرِ؛ وأَكْرَهُ لكَ إِخْلافَ الصَّديقِ واطِّرافَ المَعْرِفَةِ.

وأَنْهاكَ عَنْ مُلاحاةِ الحُكَماءِ، ومُزاحِ السُّفَهاءِ.

إنَّ لكَ عَقْلًا وجَمالًا ولِسانًا؛ فاكْتَسِ مِنْ ثَناءِ النّاسِ ما يُؤَيِّدُ جَمالَكَ، ودَعِ الكَلامَ وأَنْتَ عَلَيْهِ قادِرٌ، ولْيَكُنْ لكَ مِنْ عَقْلِكَ خَبِيْءٌ تَدَّخِرُهُ أَبَدًا لِيَوْمِ حاجَتِك».

ج- وثَمَّةَ **وصايا** كان يُدْلِي بها **الآباءُ إلى أبنائِهم حين يَبْلُغونَ مِنَ العُمْرِ مَبْلَغًا يَتَوَقَّعُونَ فيهِ المَوْتَ بينَ لَيْلَةٍ وضُحاها**، فيشعُرون بأنَّ تَجْرِبَتَهم صارَتْ حَقًّا لأبنائِهم وعليهم أَنْ يُؤَدُّوهُ إليهم؛ فمِنْ ذلك أنَّ الحارِثَ بنَ كَعْبٍ – وقِيلَ: مالِكَ بنَ المُنْذِرِ البَجَلِيَّ، وكانَ عَلى دِينِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ - جَمَعَ بَنِيهِ فذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ أَخْلاقِهِ، ثُمَّ أَوْصاهُمْ، فقال في وَصِيَّتِه:

«... **يا بَنِيَّ! كونوا جميعًا ولا تَفَرَّقُوا فتكُونُوا شِيَعًا، وإنَّ مَوْتًا في عِزٍّ، خَيْرٌ مِنْ حياةٍ في ذُلٍّ وعَجْزٍ؛ وكلُّ ما هُوَ كائِنٌ كائِن، وكُلُّ جَمْعٍ إلى تَبايُن.**

والدَّهْرُ صَرْفانِ: فصَرْفُ بَلاءٍ، وصَرْفُ رَخاءٍ، واليَوْمُ يَوْمانِ: فيَوْمُ حَبْرَةٍ، ويَوْمُ عَبْرَةٍ؛ والنَّاسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ مَعَكَ، ورَجُلٌ عَلَيْكَ.

زَوِّجُوا النِّساءَ مِنَ الأَكْفاءِ، وَلْيَسْتَعْمِلْنَ في طِيْبِهِنَّ الماءَ، وإِيّاكُمْ والحَمْقاءَ، فإِنَّ ولَدَها إلى أَفَنٍ ما يَكُونُ.

إِنَّهُ لا راحَةَ لِقاطِعِ القَرابَةِ؛ وإِذا اخْتَلَفَ القَوْمُ أَمْكَنُوا عَدُوَّهُمْ، وآفَةُ العَدَدِ اخْتِلافُ الكَلِمَةِ.

والتَّفَضُّلُ بالحَسَنَةِ يَقِي السَّيِّئَةَ، والمُكافَأَةُ بالسَّيِّئَةِ الدُّخُولُ فيها، والعَمَلُ بالسُّوءِ يُزِيلُ النَّعْماءَ، وقَطِيعَةُ الرَّحِمِ تُورِثُ الهَمَّ، وانْتِهاكُ الحُرْمَةِ يُزِيلُ النِّعْمَةَ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ يُعْقِبُ النَّكَدَ، ويَمْحَقُ العَدَدَ، ويُخْرِبُ البَلَدَ؛ والنَّصِيحَةُ تَجُرُّ الفَضِيحَةَ، والحِقْدُ يَمْنَعُ الرِّفْدَ، ولُزُومُ الخَطِيَّةِ يُعْقِبُ البَلِيَّةَ، وسُوءُ الرِّعَةِ يَقْطَعُ أَسْبابَ المَنْفَعَةِ، والضَّغائِنُ تَدْعُو إلى التَّبايُنِ.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ[1]:

أَكَلْتُ شَبابِي فَأَفْنَيْتُهُ ... وأَنْضَيْتُ بَعْدَ دُهُورٍ دُهُورَا

ثَلاثَةُ أَهْلِينَ صاحَبْتُهُمْ ... فَبادُوا وأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرَا

قَلِيلَ الطَّعامِ حَسِيرَ القِيَا ... مِ قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ خَطْوِي قَصِيرَا».

د- وهناك **وصايا** تركَها مجموعةٌ مِنَ **السّادة لعشائرِهِمْ** عامّةً، فمن ذلك قولُ هُبَيْرَةَ بنِ صَخْرٍ الكلبيّ:

---

(١) الأَفَنُ: الفَسادُ وضَعْفُ الرَّأْي.

«يا بَنيَّ ويا عَشِيرَتَاه! أُوْصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ والصَّبْرِ على المَضَضِ، ففِيهِ الفَوْزُ، لا فَوْزُ القِسِيِّ.

حافِظُوا على الحُرَمِ، فإنَّ الهَلاكَ في الغَفْلَةِ عنها.

والفَشَلُ في التّخاذُلِ؛ غِيْظُوا العَدُوَّ بإِظْهارِ السُّرورِ، وإِبْداعِ الأُمُورِ.

واذْكُرُوا المَجامِعَ والمَواسِمَ يَأْمَنْ سِرْبُكُمْ، فإنَّ المُحافَظَةَ أَمْنٌ.

وإنّما المُعَسْكَرُ لِمَنْ صَبَرَ.

ولْيُحَيِّكُمْ ربُّكُمْ!».

هـ - وهنالِكَ وصايا وجَّهَها حكيمٌ مِنَ الحكماء إلى قومٍ استشارُوه، منها ما كَتَبَ بِهِ أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ في رسالةٍ إلى جُهَيْنَةَ ومُزَيْنَةَ وأَسْلَمَ وخُزَاعَةَ، فقال:

«لا تَفَرَّقُوا في القَبائِلِ، فإنَّ الغَرِيبَ بِكُلِّ مَكانٍ مَظْلُومٌ؛ وإيّاكُمْ والوَشائِظَ، فإنَّ الذِّلَّةَ معَ القِلَّةِ.

إنَّ العارِيَّةَ لَوْ سُئِلَتْ: أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟ لَقالَتْ: أَبْغِي أَهْلِي ذَمًّا.

مَنْ يَتَتَبَّعْ كُلَّ عَوْرَةٍ يَجِدْها.

والرَّسُولُ مُبلِّغٌ غَيْرُ مَلُومٍ، ...

أَشْرافُ القَوْمِ كالـمُخِّ مِنَ الدَّابَّةِ، فإِنَّما تَنُوءُ الدَّابَّةُ بِمُخِّها، ...

والدَّالُّ على الـخَيْرِ كفاعِلِه.

والْـجَزَاءُ بِالْـجَزَاءِ، والبَادِئُ أَظْلَمُ.

والشَّرُّ يَبْدَؤُهُ صِغارُه».

٣- الظَّواهِرُ الفَنِّيَّةُ في الوَصايا الجاهليّة:

إنّ تدبُّرَ الوصايا السّالفةِ يَكْشِفُ عنِ الـملامح العامَّةِ لوصايا الجاهليّين، في أشكالِهَا ومعانيها؛ فيُلْحَظُ أنّها **تتّسم بالإيجازِ والقِصَرِ في الغالب**، وهُوَ أمرٌ مُتَوقَّعٌ، لأنّ الـمُوصِي يريد لوصِيَّتِه أن تُحْفَظَ، بِمَعْنَى أنْ تُراعَى وتُطَبَّقَ ولا تُضَيَّعَ، وأَنْ يُحْفَظَ نَصُّها، وقد صَرَّح كثيرٌ مِنَ الـمُوصِينَ بهذا، فقال زُرارَةُ بنُ عُدُسٍ التّميمِيُّ وهو يُمَهِّدُ لوصيّتِه: «**خُذُوا مِنْ أَدَبِي واثْبُتُوا عِنْدَ أَمْرِي، واحْفَظُوا وَصِيَّتِي**»، وقال عَوْفُ بنُ كِنَانَةَ الكَلْبِيّ: «**يا**

بَنِيَّ! احْفَظُوا وَصِيَّتِي، فإنّها أَنْصَحُ الجِبِلَّةِ لَكُمْ، وإِنْ أَنْتُمْ حَفِظْتُمُوها سُدْتُمْ قَوْمَكُمْ بَعْدِي».

وممّا يُلْحَظُ أنّ **السَّـجْعَ في وصـاياهم أقـلُّ منه في خُطَـبِهم**، ذلـكَ أَنَّ عددًا كبيرًا منها كانَ خاليًا من السَّجْعِ إلّا ما جاء اتِّفاقًا؛ ولكنَّ فيهـا وصـايا اطَّرَدَ فيها السَّجْعُ كوصيّةِ أُمَامَةَ لابنَتِها، وكأنَّها أَرادَتْهَا وصيَّةً مُزَيَّنَةً كما تُزَيَّن العَرُوس؛ وثمّة وصايا يأتي فيهـا السَّـجْعُ مَقْصُـودًا ولكِـنْ مـن غَـيْرِ اطِّـراد، وبعضُ السَّجْعِ كانَ يأْتِي داخِلِيًّا في العبارةِ الواحدة، مثل: «الذِّلّة معَ القِلَّـة» و«الـمُعَسْكَرُ لِمَـنْ صَـبَر»؛ ومـن فوائِـدِ السَّـجْعِ أَنَّـهُ أَعـانَ عـلى حِفْـظِ تلـك الوصايا.

وجـاءَتِ **الوصـايا المسـجوعَةُ متوازنَـةَ العبـاراتِ** في الغالِـب؛ وأمَّـا **الشِّعْرُ فقَلَّما اقْتَرَنَ بوصاياهم المنثُورَة**.

وهذه الظّواهرُ في شَكْلِ وصـاياهُمْ تَعْنِـي أنَّ مِـنْهُم مَـنْ كـان يتعمَّـدُ التّنميقَ والصَّنْعَة اللّفظيّة، مُعْتَمِدًا على الفَنِّ للتَّأْثِيرِ فِيمَنْ يُلْقِي إليهِ بِوَصِيَّتِه.

وبالنَّظَرِ إلى معاني هذه الوصايا يُلْحَظُ في أسلوبِها **كَثْرَةَ اعتمادِها على صِيْغَتَيِ الأمرِ والنَّهْي** مِن أساليبِ الإنشاء، وهما الصّيغتانِ الـمناسبتانِ لهـذا النّوع مِنَ الأدب؛ لأنّ الـمُوصي إنّما يوجِّـه الـمُوصَى، فيـأمرُهُ بـما فيـه خَـيْرُه

ورَشادُه، ويَنْهَاهُ عمّا فيه ضُرُّهُ وفَسادُه؛ في حينَ كانَتِ الخُطْبَةُ تتميّزُ بتنوُّعِ أساليبِ الإنشاء فيها، مِن استفهامٍ ونداءٍ وتعجُّبٍ وتَمَنٍّ وأمرٍ ونهيٍ.

وممّا يُلْحَظُ أيضًا **قِلَّةُ اعتمادِ هذه الوصايا على الصُّوَرِ البيانيَّةِ**، من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ، وإن كنّا لا نعدَم أمثلةً لذلك، كقول عَمْرِو بنِ الغَوْث بنِ طيِّئ: «**فارْعَوْا مَرْعَى الضَّبِّ الأعْوَر، يَرَى جُحْرَهُ ويَعْرِفُ قَدْرَه؛ ولا تَكُونُوا كالْجَراد، يَأْكُلُ ما وَجَدَ، ويَأْكُلُهُ ما وَجَدَه؛ وإيَّاكُمْ والبَغْيَ، فإنَّ اللهَ إذا أَرادَ هَلاكَ النَّمْلَةِ جَعَلَ لَها جَنَاحَيْنِ**»، وكقولِ صَعْبِ بنِ سَعْدِ العَشِيرَةِ: «**يا بَنِيّ! أَوْسِعُوا الحُبَا، وحُلُّوا الرُّبا**»، فكَنَى عَنْ عِظَمِ الهِمَّة بسَعَةِ الحُبا، وعَنِ الأَمْرِ بإكرامِ الضّيفِ بالحُلولِ بالرَّبَواتِ لإيقادِ النّار.

وبعضُ هذه الوصايا **قد يَسْبِقُها كلامٌ يُمَهِّدُ بهِ المُوصِي لِوَصِيَّتِه**، فيُظْهِرُ شدّةَ حَدَبِهِ وحُبِّه لأبنائِهِ وقومِه، وحِرْصَهُ على ما فيه صَلاحُهم، كما في وَصِيَّةِ أُمامَةَ ووَصِيَّةِ المُنْذِرِ لِابنِهِ النُّعمان.

وممّا يميّزُ هذه الوصايا عامّةً **وضوحُ العِبارةِ واللَّفْظ**، فهذا يساعدُ على بلوغِ الهدف مِنَ الوصيّة، وهي تُشْبِهُ الخُطْبَةَ في ذلك، وتُخالِفُ سَجْعَ الكُهّان، لأنّ هدفَ الوصيّةِ والخُطْبَةِ الوَعْظُ والاعتبارُ والنُّصْح، وهدفَ سَجْعِ الكُهّانِ -في الغالبِ- التّهويلُ والتّهويم، فكانُوا يأتُونَ بما يجعلُ عباراتِهم غامضةً، ولذلك كانت أقْوالُهُمْ أقلَّ ما وصلَ إلينا من النّثر الجاهليّ.

وهذه الوصايا تتميّزُ **بدقّةِ المعنى وإحكامِهِ وتكثِيْفِهِ في ألفاظٍ قليلة**، فكانت هذه المزيّةُ إلى جانبِ وضوحِ ألفاظِها ومعانيها سببًا في ذهابِ عددٍ كبيرٍ من عباراتِهِمْ أمثالًا كما ذهبَتْ بَعْضُ عباراتِ الخُطباء.

رابعًا: أمثال الجاهليّين وحِكَمُهم

١ - تعريف:

المَثَلُ: قولٌ سائرٌ، قِيْلَ في مَقامٍ ما، بلفظٍ مُوجَزٍ، أو مَعْنًى دقيقٍ صائبٍ، أو تشبيهٍ حَسَنٍ، أو كنايةٍ لطيفة، فدار بين النّاسِ واستعملوهُ لِما يُشْبِهُ المَقامَ الَّذي قيلَ فيه أوّلَ ما قيل؛ وهُوَ مأخوذٌ مِنَ المثُولِ بِمَعْنَى القيام، فكأنّهم أقاموا لَفْظَ (المثَلِ) مَقامَ غيرِه، لِتَوافُقِ الحالينِ في المعنى.

والحِكْمَةُ: قولٌ بليغٌ مُوْجَزٌ، أصاب صاحِبُهُ الحقيقةَ فيما رَمَى إليه؛ وتَرْجِعُ الحكمةُ في معناها إلى العِلْمِ والإتقانِ والرَّدِّ عَنِ الْجَهْلِ والفَساد.

والفَرْقُ بين الحكمةِ والمَثَلِ أنّ المثَلَ ما شاعَ بين العامّةِ والخاصّة، ويُطْلَقُ على الحالِ وما شابَهَها، في حين لا تقع الحكمة إلّا على معنًى مِنَ المعاني في جانبٍ من جوانبِ الحياة، وتدور بين خاصّة النّاس دونَ عامّتهم، فإذا شاعَتْ وأشبهتِ المثَلَ في سَيْرُورتها سُمِّيَتْ مَثَلًا؛ ولذلك جمعت كتبُ الأمثالِ كثيرًا من الحِكَم، حتّى إنّ بعضَ العلماء عَرَّفَ الأمثالَ بأنّها الحِكَم؛ قال أبو عُبَيْدٍ القاسِمُ بنُ سَلّامٍ: «هذا كِتابُ الأمثالِ، وهي حِكْمَةُ العرب في الجاهليّة والإسلام، وبها كانت تُعارِضُ كلامَها، فتبلُغُ بها ما حاولَتْ مِن حاجاتِها في المَنْطِقِ بكنايةٍ غَيْرِ تَصْريحٍ، ...».

وإذا كانتِ الوصايا والخُطَبُ وسَجْعُ الكُهّانِ مُعَرَّضةً لاختلافِ الرّواية -وإنْ كانَ ذلك الاختلافُ غَيْرَ واسِعٍ- فإنّ الأمثالَ والحِكَمَ قلَّما وقع فيها ذلك؛ لأنّ مِن عادةِ العَرَبِ أَنْ يُجْرُوا الأمثالَ والحِكَمَ بألفاظِها من غَيْرِ أَنْ يُغَيِّروا صِيغَتَها، ولأنّها قصيرةٌ مُوجَزَةٌ، دائرةٌ بينَ النّاس، حتّى إنّ كثيرًا مِن النّاس يستعملونها على هَيْئَتِها وهم لا يعرفون سببَ قَوْلِها ولا خَبَرَه.

٢- التّأليفُ في الأمثال:

جاءَ الإسلامُ وعلى ألسنةِ العَرَب ما لا يكادُ يُحْصَى- مِنَ الأمثال والحِكَمِ الموروثة عن الجاهليّين، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتّى بدأت الجهود لتصنيفِ تلكَ الحِكَم والأمثال في كُتُبٍ مُفْرَدَة؛ بَلْ إنّ **مِنَ الحِكَمِ ما كانَ مُدَوَّنًا قَبْلَ الإسلام**، ففي خبرِ سُوَيْدِ بنِ الصّامِتِ الأَوْسِيّ أنّه قَدِمَ مكّةَ حاجًّا أو مُعْتَمِرًا، فدعاه النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ إلى الإسلام، فقال سُوَيْدٌ: «لعلّ الَّذي مَعَكَ مِثْلُ الَّذي معي، فقال: وما الَّذي معك؟ قال: مَجَلَّةُ لُقْمانَ، يَعْنِي حِكْمَةَ لقمان»، والمَجَلَّةُ: الكِتاب، مُشْتَقَّة مِنْ (جَلَّ) إذا عَظُمَ، ولذلك قِيلَ: لا يُطْلَقُ لفظُ (المَجَلّة) على الكِتابِ إلّا أنْ يَكُونَ كِتابَ حِكْمَةٍ، لجَلالِ الحِكْمَةِ وعِظَمِ شَأْنِها، ورُوِيَ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنّه قال: «قرأْتُ مِن حِكْمَةِ لُقْمانَ أَرْجَحَ مِن عَشَرَةِ آلافِ بابٍ».

وفي **القرنِ الأوّلِ** أَلّفَ كلٌّ مِنْ عُبَيْدِ بنِ شَرْيَـة الـجُرْهُميّ (٦٧ هـ)، وعِلاقةِ بنِ كِرْشِمٍ –ويُقال: كَرْسَم– الكِلابيّ (كان حيًّا قبل سنة ٦٤ هـ)، وصُحارِ بنِ عَيّاشٍ العبديّ (٤٠ هـ) كتابًا في الأمثال، وقد بقيَتْ هذه الكتبُ بين أيدي النّاس حتّى نقَلَ عنها أبو عُبَيْدٍ البَكْريُّ الأندلسيّ (٤٨٧ هـ) في كتابه (فَصْل المَقال)، وذكر ابنُ النّديم (توفِّيَ بعد ٣٧٧ هـ) أنّه رأى كتاب عُبَيْدٍ في نحو خمسين ورقة.

وفي **القرنِ الثّاني** أَلَّفَ في الأمثالِ كلٌّ مِن الشَّرْقيِّ بنِ القُطاميّ الكلبيّ، والمُفَضَّلِ الضَّبِّيّ، وأبي عَمْرٍو الشّيبانيّ، وأبي عُبيدة، والأصمعيِّ، وأبي زيدٍ الأنصاريّ، وأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلاّم، وغيرهم.

ثمّ تتابعتِ المؤلَّفاتُ بعدَ ذلك حتّى بلغَتْ كتُبُ الأمثال الّتي اعتمد عليها أبو الفضل أحمد بن محمّد المَيْدانيّ أكثرَ من خمسين كتابًا؛ ومِنْ أَجْمَعِ كتبِ الأمثالِ الّتي وصلت إلينا كتاب (جَمْهَرَة الأمثال) لأبي هلالٍ العسكريّ، و(مَجْمَع الأمثال) للميدانيّ، و(المُسْتَقْصَى في الأمثال) للزّمخشريّ؛ وقد اعتمدت هذه الكتب الجامعةُ على ترتيبِ الأمثال ترتيبًا معجميًّا، فتداخَلَتْ أمثالُ الجاهليّةِ وما بعدها، فصار «مِنَ الصّعبِ تمييزُ جاهليِّها مِنْ إسلامِيِّها في كثيرٍ مِن الأحيان»، إلّا أَنْ يكونَ في قصّة المَثَلِ ما يَدُلُّ على جاهليّتِه مِن حوادثِ الجاهليّة أو أسماءِ أعلامها، أو ما يخصّهم مِن مُعْتَقَداتٍ وعادات.

٣- أشهرُ حُكَماء الجاهليّة:

إنّ أسماءَ كثيرٍ مِن قائلي الأمثالِ والحِكَم مَجْهُولَةٌ، إمّا لِقِدَمِ المثَلِ، وإمّا لأنّ قائلَه مِن عامّة العرب، غَيْرَ أنّ كثيرًا مِن الحِكَمِ والأمثالِ الجاهليّةِ نطَقَ بها أُناسٌ عُرِفوا بالحكمةِ وسِعَةِ التّجربةِ في قبائِلِهم، فكانوا يلجؤونَ إليهم فيما ينشأُ بينهم مِن خصامٍ ونِزاع، فكانوا حُكّامَهُم القُضاةَ بَيْنَهُم، إلى جانبِ أَنَّهُم حُكَماؤُهم؛ فَعُدَّ مِن قُدماءِ حُكَمائهم لُقْمانُ عادٍ فيما كانَ مُتَداوَلًا بَيْنَ الْجاهِلِيِّينَ مِنْ قَصَصٍ حَوْلَ عادٍ، وكان فيهم بَعْدُ حُكَماءُ وحُكّامٌ، **ففي اليَمَنِ** مَثَلًا: الأَفْعَى الْجُرْهُمِيُّ وعَمْرُو بنُ حُمَمَةَ الدَّوْسِيُّ، **وفي تَمِيمٍ**: أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ وحاجِبُ بنُ زُرَارَةَ والأَقْرَعُ بنُ حابِسٍ وضَمْرَةُ بنُ ضَمْرَةَ ورَبِيعَةُ بنُ مُخاشِنٍ، **وفي قَيْسِ عَيْلانَ**: عامرُ بنُ الظَّرِبِ العَدْوانيّ وغَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ الثّقفيُّ، **وفي قُرَيْشٍ**: عبدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ وابنُهُ أَبو طالِبٍ والعاصُ بنُ وائلٍ، **وفي بَنِي أَسَدٍ**: رَبِيعَةُ بنُ حُذارٍ وابنُهُ سُوَيْدٌ؛ **وفي كِنانَةَ**: يَعْمُرُ الشَّدّاخُ وصَفْوانُ بنُ أُمَيّة؛ **وكانت فيهم حكيماتٌ حاكِماتٌ** مشهوراتٌ، منهنّ: صُحْر بنتُ لُقمانِ عادٍ، وهند بنتُ الخُسِّ، وجُمْعَةُ بنتُ حابِس، وابنةُ عامرِ بنِ الظَّرِبِ.

٤ - أمثلة من أمثال الجاهليّين وحِكَمِهم:

مِمّا رُوِيَ عَن أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيٍّ قَوْلُهُ لِبَنِيه: «**... عَلَيْكُمْ بالبِرِّ فإنَّهُ يُنْمِي العَدَد، وكُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فإنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْه؛ إنَّ قَوْلَ الحَقِّ لَمْ يَدَعْ لي صَدِيقًا...؛ لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَك؛ وَيْلٌ لِعالِمِ أَمْرٍ مِنْ جاهِلِهِ؛ الوَحْشَةُ ذَهابُ الأَعْلامِ؛ يَتَشابَهُ الأَمْرُ إذا أَقْبَلَ، فإذا أَدْبَرَ عَرَفَهُ الأَحْمَقُ والكَيِّس؛ البَطَرُ عِنْدَ الرَّخاءِ حُمْقٌ...**»، أَرادَ بالأعلامِ العُظَماءَ، وقولُه: « **... رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْل، والحُرُّ حُرٌّ وإنْ مَسَّهُ الضُّرُّ...؛ حافِظْ على الصّديقِ ولَوْ في الحَريق؛ ولَيْسَ مِنَ العَدْلِ سُرْعَةُ العَذْل**».

ومِمّا رُوِيَ لِعامر بنِ الظَّرِبِ قولُهُ لِقَوْمِهِ وقَدِ اجْتَمَعُوا إلَيْهِ حينَ كَبِرَ وخافُوا مَوْتَهُ، وطَلَبُوا إلَيْهِ الوَصيَّةَ[1]: «**مَنْ جَمَعَ بينَ الحقِّ والباطِلِ لَمْ يَجْتَمِعا لَه، وكانَ الباطِلُ أَوْلَى بِه، وإنَّ الحقَّ لَمْ يَزَلْ يَنْفِرْ مِنَ الباطِلِ، ولَمْ يَزَلِ الباطِلُ يَنْفِرُ مِنَ الحقِّ؛ لا تَفْرَحُوا بالعِلْق، ولا تَشْمَتُوا بالزَّلَّة؛ وبِكُلِّ عَيْشٍ يَعِيشُ الفَقِيرُ؛ ومَنْ يُرِ يَوْمًا يُرَ بِه؛ وأَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ قَدْرَه، قَبْلَ الرِّماءِ تُمْلَأُ الكَنائِنُ، ...**».

---

(١) العِلْقُ: الشَّيْءُ النَّفِيسُ. والرِّماءُ: المُراماةُ بِالسِّهام. والكَنائِنُ: جَمْعُ الكِنانَةِ، وهِيَ جَعْبَةُ السِّهام.

ومِن أمثالِهم: « (**إِنَّ الْجَبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ**)، الحَتْفُ: الهَلاكُ...؛ قالَ ابنُ الكَلْبيّ: أَوَّلُ مَنْ قالَهُ عَمْرُو بنُ مَامَةَ[1] في شِعْرٍ لَه، وكانَتْ (مُرادٌ) قَتَلَتْهُ، فقالَ هذا الشّعرَ عندَ ذلك، وهُوَ قَوْلُه:

لَقَدْ حَسَوْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

والثَّوْرُ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ

يُضْرَبُ في قِلَّةِ نَفْعِ الحَذَرِ مِنَ القَدَر...».

ومِنْها قَوْلُهم: « (**أَتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاهُ**)، كانَ المُفَضَّلُ [الضَّبِّيُّ] يُخْبِرُ بقائلِ هذا المَثَلِ فقال: إنّهُ الحارِثُ بنُ جَبَلَةَ الغَسّانيّ، قالَهُ لِلْحارِثِ بنِ عَيِّفٍ العَبْدِيِّ، وكانَ ابنُ العَيِّفِ قد هَجاه، فلمّا غَزا الحارِثُ بنُ جَبَلَةَ المُنْذِرَ بنَ ماءِ السّماءِ كان ابنُ العَيِّفِ مَعَه، فَقُتِلَ المُنْذِرُ، وتفرَّقَتْ جُموعُه، وأُسِرَ ابنُ العَيِّف فأُتِيَ به الحارثُ بنُ جَبَلَة، فعندها قال: (أَتَتْكَ بِحائنٍ رِجْلاهُ)، يَعْنِي مَسِيرَهُ معَ المُنْذِرِ...؛ وقِيلَ أَوّلُ مَنْ قالَهُ عَبِيدُ بنُ الأَبْرَصِ حينَ عَرَضَ للنُّعْمانِ بن المُنْذِرِ في يَوْمِ بُؤْسِهِ، وكان قَصَدَهُ لِيَمْدَحَهُ، ولم يَعْرِفْ أَنَّهُ يَوْمُ بُؤْسِهِ، فلمّا انتهى إليْهِ قالَ لَهُ النُّعمان: ما جاءَ بِكَ يا عَبِيدُ؟ قال: أَتَتْكَ بِحائِنٍ رِجْلاهُ...».

ومنها قولُهم: «**أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ**»، وأَوَّلُ مَنْ قالَهُ النّابغةُ حينَ قال:

---

(١) أَخُو عَمْرِو بنِ هِنْد مَلِكِ الحِيرةِ.

وَلَسْــتَ بِمُسْــتَبْقٍ أَخًــا لا تَلُمُّــهُ عَـلَى شَـعَثٍ، أَيُّ الرِّجـالِ الْمُهَـذَّبُ

ومِن أمثالِـهمُ الـمَشهورة: «**مَنْ أَجْـدَبَ انْتَجَـعَ**»، و«**ومَـنِ اسْـتَرْعَى الـذِّئْبَ فَقَـدْ ظَلَـمَ**»، و«**الـذَّوْدُ إِلَى الـذَّوْدِ إِبِـلٌ**»، و«**رُبَّ عَجَـلَةٍ تَهَـبُ رَيْثًـا**»، و«**أَسْــمَعُ جَعْجَعَــةً وَلا أَرَى طِحْنًــا**»، و«**إِنَّ الْبُغَــاثَ بِأَرْضِــنا تَــسْتَنْسِرُ**»، و«**أَعْطِ القَوْسَ بارِيْها**»، و«**عِنْدَ (جُهَيْنَةَ) الخَبَرُ اليَقِينُ**»، و«**تَسْمَعَ بالــمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَراهُ**»، و«**الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ**»، و«**جَزاءُ (سِنِمّارَ)**»، و«**مَواعِيـدُ (عُرْقُوبٍ)**»، و«**مُجِيرُ (أُمِّ عامِرٍ)**».

٥- الظَّواهِرُ الفنّيّةُ للأمثالِ والحِكَمِ الجاهليّة:

يدُلُّ النّظرُ في الأمثالِ والحِكَمِ السَّـابِقَةِ وفي غيرهـا عـلى مجموعـةٍ مِـنَ الظّواهر الفنّيّةِ لحِكَم الجاهليّـينَ وأمثالِـهم، شَكْلًا ومَضْمُونًا.

أ- ظَواهِرُ في الشَّكْل:

يُلْحَـظُ أَنّهـا **تتميَّـزُ بالـقِصَرِ والإيجـاز**، وأنّ أغلَبَهـا يتكـوّن مِـن جُمْلَـةٍ واحِدَةٍ لا غيرَ، وإِنْ كان ثمَّةَ أمثالٌ تتجاوزُ ذلك، كقولِـهِمْ: « **العَبْدُ يُقْـرَعُ بالعَصـا، والحُـرُّ تَكْفِيـهِ الإِشـارَة**»، وقولِـهم: « **إِنَّ الحَـمَاةَ أُوْلِعَـتْ بالكَنَّـةِ، وأُوْلِعَتْ كَنَّتُهَا بالظِّنَّة**».

ويُلْحَظُ أنّ قِسْمًا كبيرًا منها تتوافرُ له **عناصِرُ مُوسيقيَّةٌ مِنْ وَزْنٍ أَوْ سَجْعٍ أَوْ جِنَاسٍ**، ويغلِبُ على الأمثالِ المَوْزُونةِ أَنْ تَكُونَ أَبْعاضَ أَبْياتٍ من الشّعر، كقولِهِمْ: «**أَعْطِ القَوْسَ بارِيْها**»، فإنّ أصلَه قولُ الشّاعر:

يا بارِيَ القَوْسِ بَرْيًا لَسْتَ تُحْسِنُهَا ... لا تُفْسِدَنْها، وأَعْطِ القَوْسَ بارِيْهَا

وقَوْلِهِمْ: «**قَدْ قِيلَ ذَلِكَ إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا**»، أَصْلُهُ قَوْلُ النُّعْمانِ بنِ المُنْذِرِ للرَّبِيعِ بنِ زِيادٍ العَبْسِيّ مِنْ أَبياتٍ:

قَدْ قِيلَ ذلِكَ إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا ... فَمَا اعْتِذارُكَ مِنْ شَيْءٍ إِذا قِيْلا

وقولِهِمْ: «**لِأَمْرٍ ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ**»، و«**لَمّا اسْتَدَّ ساعِدُهُ رَماني**».

ومِمّا جاء مَسْجُوعًا أو مُجانَسًا قولُهم: «**اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْل**»، و«**لِكُلِّ ساقِطَةٍ لَاقِطَةٌ**»، و«**لَجَّ فَحَجَّ**»، و«**لَوْ قُلْتُ: تَمْرَة، لَقالَ: جَمْرَة**»، و«**لَا فِي العِيرِ، ولَا فِي النَّفِيرِ**»، وقولُهم: «**لَأَشْأَنَنَّ شَأْنَهُمْ**» أَيْ: لَأُفْسِدَنَّهُ، وشَأَنَهُ: إذا أَصابَ شُؤُونَ رَأْسِهِ، وهي قِطَعُ الْجُمْجُمة، و« **لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالٌ**».

ومِمّا يُلْحَظُ في الأمثالِ أَيْضًا **مُخالَفَةُ القِياسِ في النَّحْوِ والصَّرْفِ في بَعْضِها**، وهو نادِرٌ؛ إِذِ اسْتَجازُوا فيها مِنَ الحَذْفِ وغَيْرِهِ مِمّا يَقَعُ في ضَرائِرِ الشّعرِ مالَم يَسْتَجِيزُوهُ في سائِرِ كَلامِهِم؛ كقولِهم: «**أَجْنَاؤُها أَبْناؤُها**»، فجَمَعُوا (الجاني) على (أجناء)، و(الباني) على (أبناء)، وإنّما جَمْعُهُما (جُناةٌ) و(بُناةٌ)، ولكنَّ قائلَ المَثَلِ هكذا نَطَقَ به فحَفِظُوهُ بِلَفْظِه؛ وكقولِهِمْ: «**أَعْطِ القَوْسَ بارِيْهَا**» بسُكونِ الياءِ مِن (باريْها) لأنّها هكذا وردَتْ في الشّعرِ الَّذي

أُخِذَ مِنْهُ الـمَثَلُ؛ وقولِـهِمْ: «**خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ يَأْخُذَك**» فنصَبُوا (يأخُذَك) بـ(أنْ) مُضْمَرَةٍ؛ وقولِـهِمْ: «**تَسْمَعَ بالـمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ**» بِنَصْبِ (تَسْمَعَ) بـ(أَنْ) مُضْمَرَةٍ؛ وقَوْلِـهِمْ على لِسانِ الحَجَلَةِ تُخاطِبُ القَطَا فيما صاغُوه على لِسانِ الحَيوانِ مِن أمثالِـهم: «**قَطَا قَطا! بَيْضُكِ ثِنْتا، وبَيْضِي مِئَتا**» أَيْ: (ثِنْتَانِ) و(مِئَتانِ).

ومِـمّا سارَتْ علَيْهِ العربُ في الأمثالِ أَنّها **تُجْرِيها كما جاءَتْ ولا تُغَيِّرُها عن لفظها الأوّل**، كما في هذه الأمثالِ السّابقةِ الـمُخالِفَةِ للقياس، وكما في قولهم: «**الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ**» بكَسْرِ التّاء، يقولُونَهُ للمذكَّرِ والمؤنَّث، وللْمُفْرَدِ والمثَنَّى والجمع؛ وكما في قولهم: «**يَداكَ أَوْكَتا وفُوْكَ نَفَخ**» يقولونَهُ للمذكَّرِ والمؤنّث، وللمُفْرَدِ والمثنّى والجمع.

ب- ظواهِرُ في الـمَضْمون:

لاحَظَ النُّقّادُ مُنْذُ القَدِيمِ أنَّ **الأمثالَ حِينَ تُطْلَقُ إنّما يُرادُ بها تَشْبِيهُ حالٍ بحالٍ، أو يُرادُ الكِنايةُ بالـمَثَلِ عَنْ معنًى ما**، ولذلكَ قالَ الـمُبَرِّدُ فيما نقل عنه الميدانيّ: «المَثَلُ مأخوذٌ مِنَ المِثَالِ، وهُوَ قَوْلٌ سائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حالُ الثَّاني بالأَوَّلِ، والأَصْلُ فيهِ التَّشْبِيهُ»، وذكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ القاسِمُ بنُ سَلّامٍ أَنّه اجْتَمعَ للعَرَبِ في أمثالِها: «إيجازُ اللَّفْظِ، وإصابةُ الـمَعْنَى، وحُسْنُ التَّشْبِيهِ»، ووصفَها (إبراهيمُ النَّظّامُ) بأنّها نِهايةُ البَلاغَةِ، لِاشْتِمالِها على: «إيجازِ اللّفظ، وإصابةِ المعنى، وحُسْنِ التّشبيه، وجَودةِ الكِناية».

وهذا الـحُكْمُ النّقديّ واقعٌ على الـمَثَلِ حينَ يُتَمَثّلُ به، ولا يَخْرُجُ عن هذا الـحُكْمِ أَيُّ مَثَلٍ؛ وأمّا الأمثالُ والحِكَمُ نفسُها فإنّ منها ما لا يقعُ فيه تشبيهٌ ولا استعارةٌ ولا كنايةٌ، كقولهم: «**إِنْ لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلِبْ**»، و«**أَمْرَ مُبْكِياتِكِ لا أَمْرَ مُضْحِكاتِك**»، و«**إِذا ضَرَبْتَ فأَوْجِع، وإِذا زَجَرْتَ فأَسْمِعْ**».

ومنها ما يَعْتَمِدُ على التّصويرِ مِن تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ،كقولهم: «**تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْها**»، و«**كالـمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنّارِ**»، و«**مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ ظَلَمَ**»، و«**اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا**».

بل إنّ **مِن أمثالِهم ما اعتمدوا فيه على قِصَصٍ خَياليّةٍ أَجْرَوْها على ألسنةِ البهائم** كما فعَلَتِ الأُمَمُ الأُخرى، كقولِهِمْ -إذا كانَ مِمّا عَرَفُوهُ مِن الأَمثالِ قَبْلَ الإِسلام-: «**إِنّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ**»، قالَ الـمَيْدانِيّ: « يُرْوَى أَنَّ أَمِيرَ الـمُؤْمِنينَ عَلِيًّا رضيَ اللهُ تَعالى عنه قالَ: إِنَّما مَثَلي ومَثَلُ عُثْمانَ كَمَثَلِ أَثْوارٍ ثَلاثَةٍ كُنَّ في أَجَمَةٍ أَبْيَضَ وأَسْوَدَ وأَحْمَرَ، ومَعَهُنَّ فيها أَسَدٌ، فكانَ لا يَقْدِرُ مِنْهُنَّ عَلى شَيْءٍ لِاجْتِماعِهِنَّ عليهِ؛ فقالَ لِلثَّوْرِ الأَسْوَدِ والثَّوْرِ الأَحْمَرِ: لا يُدِلُّ عَلَيْنَا في أَجَمَتِنا إِلّا الثَّوْرُ الأَبْيَضُ، فإِنَّ لَوْنَهُ مَشْهُورٌ ولَوْنِي عَلى لَوْنِكُما، فلَوْ تَرَكْتُمانِي آكُلُهُ صَفَتْ لَنا الأَجَمَةُ؛ فقالا: دُونَكَ فَكُلْهُ! فأَكَلَهُ، ثُمَّ قالَ لِلْأَحْمَرِ: لَوْنِي عَلى لَوْنِكَ، فَدَعْنِي آكُلِ الأَسْوَدَ لِتَصْفُوَ لَنا الأَجَمَةُ؛ فقال: دُونَكَ فَكُلْهُ! فأَكَلَهُ، ثُمَّ قالَ لِلْأَحْمَرِ: إِنِّي آكِلُكَ لا مَحالَةَ! فقالَ: دَعْنِي أُنادِي ثَلاثًا؛ فقالَ: افْعَلْ! فنادَى: أَلا إِنِّي أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ؛ ثُمَّ

قالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ: أَلا إِنِّي هُنْتُ – ويُرْوَى: وَهَنْتُ – يَوْمَ قُتِلَ عُثْمانُ، يَرْفَعُ بِها صَوْتَهُ؛ يَضْرِبُهُ الرَّجُلُ يُرْزَأُ بِأَخِيهِ»؛ وقولُهُمْ: «**بَقِيَ أَشَدُّه**»، قال الـميدانيّ: «ويُرْوَى: (**بَقِيَ شَدُّهُ**)؛ قيل: كانَ مِنْ شَأْنِ هذا الـمَثَل أَنَّهُ كان في الزَّمانِ الأَوَّلِ هِرٌّ أَفْنَى الجِرْذَانَ وشَرَّدَها، فاجْتَمَعَ ما بَقِيَ منها فقالَتْ: هَلْ مِنْ حِيلَةٍ نَحْتَالُ بِها لِهذا الـهِرِّ لَعَلَّنا نَنْجُو منه؟ فاجتَمَعَ رأيُهَا عَلى أَنْ تُعَلِّقَ في رَقَبَتِهِ جُلْجُلًا إِذا تَحَرَّكَ لَها سَمِعْنَ صَوْتَ الـجُلْجُلِ فأَخَذْنَ حَذَرَهُنَّ؛ فَجِئْنَ بالـجُلْجُلِ، فقالَ بَعْضُهُنَّ: أَيُّنا يُعَلِّقُ الآنَ؟ فقالَ الآخَرُ: (بَقِيَ أَشَدُّهُ)، أَوْ قال: شَدُّهُ؛ يُضْرَبُ عندَ الأمرِ يَبْقَى أَصْعَبُه وأَهْوَلُه؛ وهذا ممّا تمثَّلَ بهِ العرَبُ عن أَلْسُنِ البَهائِم»؛ وقولُـهم: «**الـحَذَرُ قبلَ إرسالِ السَّهْمِ**» قالَ الـميدانيّ: « تَزْعُمُ العَرَبُ أَنَّ الغُرابَ أرادَ ابنُهُ أَنْ يَطِيرَ، فرَأَى رَجُلًا قَدْ فَوَّقَ سَهْمًا لِيَرْمِيَهُ فَطارَ، فقالَ أَبُوهُ: اتَّئِدْ حتّى تَعْلَمَ ما يُرِيدُ الرَّجُلُ؛ فقالَ لَهُ: يا أَبَتِ! الحَذَرُ قَبْلَ إِرْسالِ السَّهْمِ»[1].

ولا يَخْفَى على النّاظر **أَثَرُ البيئةِ العربيّةِ في كثيرٍ مِن أمثالِـهم**، إذ يَظْهَرُ فيها أَثَرُ حياتِهم وبيئاتِهمُ الـمُختلفةِ وحيوانِها ونباتِها وما إلى ذلك، كما في قولهم: «**إنْ تَسْلَمِ الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر**»، والجِلَّةُ: الإبِلُ العظيمة، والنِّيْب: النّوقُ الـمُسِنَّة، و«**إنّكَ لَعالِمٌ بِمَنابِتِ القَصِيصِ**»، القَصِيصُ: شُجَيْرَةٌ تَنْبُتُ عِنْدَ الكَمْأَة، و«**أَنْ تَرِدَ الـماءَ بِماءٍ أَكْيَسُ**».

---

(١) فوَّقَ السَّهمَ: وَضَعَ فُوقَهُ في الوَتَرِ؛ والفُوقُ: مَوضِعُ الوَتَرِ مِنَ السَّهْمِ.

فهذا أَبْرَزُ ما يبدُو مِن ظواهِرَ فنّيَّةٍ في أمثالِ العَرَبِ وحِكَمِهِمُ الّتي جادَتْ بها قَرائحُهم فدارَتْ على ألسِنَتِهِمْ، لِيَكُونَ ذلكَ «أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ، وآنَقَ لِلسَّمْعِ، وأَوْسَعَ لِشُعُوبِ الحديثِ».